شارع برايندلي
ماجد محمد
رواية
NOVEL

شارع برايندلي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

تأليف

ماجد محمد العنزي

شارع برايندلي

ⓒ دار الفكر العربي ، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العنزي ، ماجد محمد سعد.
شارع برايندلي. / ماجد محمد سعد العنزي- الدمام ، ١٤٣٢هـ
.. ص ؛ .. سم
ردمك: ٢-٧-٩٠٢٣٢-٦٠٣-٩٧٨

١ - القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٠٣٦٥٣٦ . ٨١٣ ١٤٣٢/٤٥٩٩

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٤٥٩٩
ردمك: ٢-٧-٩٠٢٣٢-٦٠٣-٩٧٨

Alfeker - Alaraby Publishing house
General Admination - Dammam
Tel: 038338449
Fax: 038335440
Publisher: 0592649122

دار الفكر العربي للنشر والتوزيع
الإدارة العامة - الدمام
تليفون: ٠٣٨٣٣٨٤٤٩
فاكس: ٠٣٨٣٣٥٤٤٠
مسؤول النشر: تليفون ٠٥٩٢٦٤٩١٢٢

مدونة دار الفكر العربي
واحة القلم الحر
http://www.feker.com.sa

dar.al.feker@gmail.com
dar.al.feker@hotmail.com

www.daralfkr.com.sa

الإشراف والاخراج الفني دار الفكر العربي

الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن مسبق من الناشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in aretrieval system or transmitted any means with out prior permission in writing of the publisher

جميع العبارات والأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن
وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر

الإهداء

إلى تربة مدونتي التي استقبلت بذور قلمي وجعلت منه

شجرةً يُؤكل من طِيبها ويُستظل تحت ظلها

إلى مدونة (ذوق بنكهة خاصة)

http://www.majed-mh.com/wordpress

ماجد محمد

E7-777@hotmail.com

(I)

نهضت من سريرها واتخذت ذلك المقعد وسيلة لتجلس وتربط شعرها المبلّل بالماء ، عيناها شبه مغلقتين بعد سرقة النوم لبعض ملامحها. رسمت لي ابتسامة هادئة وسط نُور الصباح الباكر ، لا يبدو على وجهها الكثير من الفرح ، تنظر للمرآة بكل برود وهي تسرّح ما تبقى من شعرها الذي يُغطي نصف ظهرها . تأخذ بيُمناها جزءاً منه، وتقوم بيُسراها بربط ما كان بيدها الأخرى ، تكرّر ذات الخطوات بالجُزء الآخر حتى تصنع ضفيرتين بريئتين مثلها

– تبدين جميلة بتلك الضفيرة يا آشلي رغم عدم إجادتك التامة لها .

– الأشياء الجميلة لا تُصبح بذات الجمال إن تحلّى بها شخصٌ أجمل يا جاك .

ثقتها بنفسها سخيفة في أحيانٍ كثيرة ..

وأفعالها تضعني في حيرة طويلة أمام نظراتها البلهاء ، كيف لهذا الجمال الملائكي أن يكون غبيّاً ؟ قفزت بجواري على السرير

واتكأت على كتفي العاري ، لم تكن ملابس نومي ساترة بما يكفي ، قبّلت تلك العظمة البارزة فيه وأخذت تهمس كمدفئة شتاء هاربة من فصل الربيع ..

- سنذهب إلى التسوق هذا اليوم ، كان هذا وعدك لي بالأمس جاكي..
- أشعر بالتعب ، لنؤجل هذا الأمر لوقتٍ لاحق..
- أرجوك أرجوك ، أريد شراء بعض الأشياء المهمة لاستقبال صديقاتي في منزلنا اليوم .
- سنذهب إذاً

ما أجملها وهي تُصر على رغباتها ، هي كطفلة تم نزع قطعة حلوى منها ، وترجو مُنتزعها أن يقوم بإعطائها ما قام بالاستيلاء عليه ، آشلي عبارة عن مشروع طفلة نضجت وبقِي أساسها كما هو . نبضات قلبها هي ذات النبضات قبل عشرين سنة مضت ، أنثى يافعة بقلب طفلة ، فتاةٌ ناضجة بفؤاد صغيرة حالمة ، ملاكٌ فاتنةٌ بصورة بشر .

كلّ طرقك مُهيأة لاستقبال حجي بطريقةٍ ملكية ، تفرشين السجاد الأحمر وتنثرين الورد على جنباته، وتضعين في نهاية ذلك الطريق قلبكِ لينتظرني بكل شغف. أراكِ تصنعين بين

ابتسامةٍ وأخرى الكثير من الدروب الفرعية من خط حبكِ الأوحد، تُظهرين لي بأفعالك كل الإشارات المرورية التي تسمح لي بتجاوز أيِّ حائط بيننا ، وأظل مندهشاً منها وأردّد في نفسي طويلاً: ما هي خطوتي القادمة ؟

برشاقة لافتة ، انتقلت إلى الحمام ، وتناولت معها علبة ماكياج . وقفت أمام المرآة ، جمعت بيديها بعض الماء، ونثرته بطريقة انسيابية على الحوض ، وأخذت بمسح ملامحها بما هرب بين مسامات كفها الصغير . تُمسك بإصبع نحيل ذي نهاية قُطنية، وتبدأ بإضافة لون داكن فوق جفنها الأيسر، تُغمض عينيها بسرعة ، وتضع فوق الجفن الآخر ذات اللون ولكن بحذرٍ أشدّ ، عيناها ترتجفان بخوف غير مبرّر. يبدو أن هذا الأمر طبيعي حين يتم وضع هذا النوع من المساحيق النسائية .

قميصها لم يكن كافياً لإخفاء ساقيها ، بل وكان يعرض بدايات فخذيها المنتفخين ، وزنها لم يكن زائداً ، ورشاقتها كفيلة بأن تمحو كُل صُور الترهلات في جسدها. الجو بارد الآن ، ورداؤها لم يكن داكناً بما يكفي ليُخفي تهيّج رمّانتيها، لا أصدق بأن صدرها الصغير يحمل هذا الحجم البارز ، هذا البرد قادر على أن يهيّج الكثير من الأحاسيس ليجسّد حقيقة الدفء

القاطن بنا .

- آشلي ، يجب أن نذهب الآن!

- حسناً ، سألحق بكَ ..

ذات صباح ..

قُمت باستغلال وقت رحيل زوجها للعمل ولحظة غيابي عنه. ذهبت إلى مترلها البعيد عني وكان شوقي في سدرة منتهاه، لقد أخذت عذراً طبيّاً لأغيب عنهم وأكون حاضراً معكِ. مترلها يطلّ على شارعٍ ضيق لا يتسع إلا لمركبة واحدة ، وكان حفيف شجرهِ يلحّن موسيقى باذخة على مسرح ذلك الشارع، وتغريد العصافير يصنع بهجة الصباح ويرسم ابتسامة شابة مع إطلالة شمس جديدة ..

إنها الثامنة والربع ..

شارع برايندلي خالٍ تماماً وكأن الطريق يحوك لي ثوب الطمأنينة وأنا قادمٌ إليكِ ، لا تستغربي خوفي من زوجك! فأنا لا أعلم كيف رضيتِ بتقبيله في تلك الكنيسة وقت زواجكما!

هل اختفى رجال الكون حينها أم أن جثتهِ أوهمتكِ بأنه الوحيد في هذا العالم ؟ كم أكرهه كثيراً ، لم أرَ بحياتي رئيساً بهذا القدر من السوء ، أشك بأنكِ كنتِ تُعانين من مرضٍ عقلي في عام ٩٨ ، هل كان تشجيعكِ للمنتخب في كأس العالم مجنوناً لهذا الحد حتى أفقدكِ الصواب ؟ لم يكن هدف ديفيد بيكهام بتلك الروعة أمام كولومبيا ، و لم تكن إجازة نهاية الأسبوع التي أُقيمت بها المُباراة حافلة بالكثير من الأحداث .

لقد تزوجتِ به بعد أربعة أيام فقط ، في تلك الليلة التي هُزمنا بها من الأرجنتين ، يا لهذا البؤس الذي سيحل هنا في مانشستر ، الجميع هنا حزين عداكما ، لقد كنتما برفقة مترلٍ جديد وأثاث لم يمسسه جسدٌ قط ..

تتبادلان القُبل بنهم فوق السرير الجديد ..

وتصنعان من كل لمسة الكثير من الحكايات ..

وتشربان خمراً باهظ الثمن كتقدير لهذه الليلة العاطفية، هل يُعقل أن نال أندرسون كل هذا منكِ ؟ سحقاً ، أريد أن أنسى كل هذا .

صعدتُ الدرج المُؤدي لمترلكِ ..

وجدت الباب شبه مُغلق كما اتفقنا ، لا يمنعني من الدُخول إليكِ سوى دفعهِ للأمام فقط ، سأكون حريصاً على القيام بذلك دون أدنى ضجيج ، وأُغلق الباب دون أن تشعري بأن هنالك شخصاً ما قد دلف إلى داركِ في هذه الساعة المُبكرة من الصباح .

الظلام حالكٌ هنا ، نُور الشمس الهارب من تلك النافذة هو وسيلتي للسير في ردهات هذا المترل الصغير، بدأت البحث عنكِ خلسةً وسط هذه التحف الثمينة حتى وجدتكِ تُمارسين عادتكِ الصباحية ، تأخذين حماماً دافئاً قبل أن تُباشري عملكِ المترلي.

نظرت إليكِ من ثقب الباب لأستمتع بشيءٍ لا أراه دائماً، جسدٌ عارٍ تماماً ، وشعرٌ ممتد لأقصى طول ممكن على استقامة ظهركِ، وماء يستبيح كل منطقة بجسدك ليمر من خلالها .

كوّرتُ شفتيّ وأدخلتهما من ذلك الثقب ، قُلت «واو» بصوتٍ خافت و لم تسمعيه بسبب الماء المتساقط بغزارة على البانيو ، أخذت برفع معدّل تردد صوتي حتى التفتّ إلى الباب لتجدي شفاهاً مكوّرة تتلصص عليكِ .ابتسمتِ بخجلٍ لذيذ واكتفيتِ بالاختباء خلف ستارةٍ تصنع ظلك بالتعاون مع نور الشمس الهارب من النافذة خلفكِ . في الحقيقة، كان منظركِ مثيراً لحدٍّ كبير ، أعلم أنكِ قُمتِ بذلك عمداً وكان ذلك من ضمن تخطيط سابق لكِ .

نِمت على السرير ، والتقطتُ سماعة الهاتف لأتصل على مكتب أندرسون، وجدت ردّاً يُفيد بأن السّيد مشغول ولن يُجيب على الهاتف إلا في المساء ، كلامٌ كهذا يعني حصولي على ساعاتٍ إضافية مع زوجته، عفواً ، حبيبتي. لن أرحل من هنا إلا في المساء . لم أُكمل حديثي الباطني حتى أتت آشلي لتُقاطعه وهي تحتضنني من الخلف..

– على غير عادتك لم تكن كسولاً حبيبي ..

أخذت بضم يدها الدافئة بيدي الباردة ..

وكأننا نصنع جُغرافية تيّار عاطفي ..

- كان شوقي لكِ بمثابة ساعات إضافية لنومي المتأخر مساء أمس ..

- هل سمح لكَ أندرسون بأخذ إجازة لهذا اليوم ؟

- إنها إجازة اضطرارية ، العذر الطبي ما زال مطويّاً في محفظتي ، أو ربما في سيارتي ، لا أذكر ، أغمضي عينيكِ وهاتي يدكِ اليمنى .. لديّ مُفاجأة لكِ ..

مدّت يدها . أمسكت بإصبعها الذي يستقبل الخاتم، وأخذت بإدخاله بهدوء لكي تشعر كل خليّةٍ بحبي لكِ . أركنه في آخر إصبعك لأغلق كل الطرق المؤدية لعمقك ، وأحمل كفّكِ لأقبل الإصبع والخاتم بآنٍ واحد...

- أحبكِ يا آشلي ..

كلمتي زيّنت الكثير من الحقول بالياسمين ، وقراري شكّل قوالب حُبٍّ راسخة في قلبينا كعاشقين متيّمين . نحن الآن ثلاثة ، أنا وأنتِ والحب ، لا رابع لنا ، أحتاج إلى تمزيق ورقة زواجكِ مع أندرسون لأبدأ معكِ صفحةً جديدة بيضاء كبشرتكِ . استقبالكِ الأنيق لحبي كان مدهشاً ، كنتِ تكتّين الكثير من المشاعر لي ، وبأول شرارة كامنة فجّرتِ ينابيع من الحنان يا آشلي ، و كُنتُ كعَطِش انغمس في صفاء غديرك ..

السُّحب تُمطر بغزارة، وكُل الطرق المؤدية لمترل آشلي مُغلقة..

تعطّلت المركبة ، ولم أستطع أن أُكمل القيادة ففضّلت إكمال الطريق سيراً على أقدامي ، يبعد شارع ريجنت عن مترلها الكثير من الكيلومترات . ملابسي تبلّلت تماماً والضباب تمكّن من حجب طريقي ، أحتاج إلى زاوية صغيرة لأرتاح بها.. سأحط رحالي هنالك ، بجوار شجرةٍ ضخمة. أركز ظهري على ساقها، وأستظل تحت أوراقها الكبيرة من المطر، أفرد قدميّ للأمام وأتمعن في القطرات المنسلّة بين الأوراق ، منظرها البديع يخلق الكثير من الأسئلة .

هذا المطر ليس عاديّاً ..

فقُدومه يعني الكثير لهذا الرصيف ، الأزهار تُغني والتربة ترقص على أنغام إيقاعه ، إنه يصنع كل هذا الاخضرار المُحيط من حولي ، ويعطي هذا التوت المنسدل لذّته ، كم أغبط النباتات لأنها تستطيع أن تعتمد على الماء كمصدر لحياتها، والرب لن ينساها بالتأكيد ، هو راضٍ عنها ، فالسماء تُمطر!

هنالك مجموعة أشخاصٍ يسيرون بالضفة الأخرى، هل هذا الوقت صالح لرياضة المشي ؟ نهضت وقُمت بتتبعهم، إنهم يدخلون إلى الكنيسة ! البعض يبكي والآخر يجسّد الخوف بكُل

صُوره ، يبدو أنهم مجموعة مرضى لا يملكون من حياتهم سوى هذا المبنى المصمّم لكل مسيحي .

يا إلهي ! وجدت هنالك شيئاً غريباً ، آشلي كانت من ضمن أولئك المرضى – حسب اعتقادي – ، ملامحها تشي بالبكاء، دقّقت بنظري حتى تحققت بأنها هي ، لماذا تفعل هذا يا تُرى ؟

عُدت إلى ذات الشجرة ، وغرست رأسي بساقها لأبكي، كيف لآشلي أن تأتي لهنا بوقتٍ عصيبٍ كهذا ؟ هل كُنت ذنباً يستحق أن تُعاني منه بهذه الليلة الماطرة ؟ هل تتناسى بأن الشكوى في يوم ماطر تعني شكوتها من خيانة قامت بها؟ هل ستشتكيني لذلكً القسيس وتبكي عنده طويلاً؟ هل ستشعر بإرضاء ضميرها وهي تفعل ذلك ؟

إنها ترتدي الأسود ، وتمشي في ليلة ماطرة أغرقت شوارع مانشستر ، ولا تأبه لأي مشكلة قد تُصادفها بعد قرارها بالمجيء، فهي لا تخاف على حياتها من سيارة قد تتزلق، أو رعد يُصيب شجرة بجوارها وهي تعبر من ضفة لأخرى . قد يكون ذنبي أعظم من اكتراثها لكل ذلك ، فوجودي في حياتها أصبح ذنباً. لأكن بالصورة بشكلٍ أكبر، وجودي في حياتها بعدما أعلنت عليها الحب أصبح ذنباً ، وأيُّ ذنبٍ هذا! إنه أقوى من كل التيارات التي قد يُحدثها المطر في البحر ، تأتي للكنيسة بحثاً

عن جُرعةٍ روحية بسبب ذنبي الكبير بحبها، وتنبش عن المغفرة بسبب خطيئتي المرتكبة في إطار حدودها الزوجية .

عملها هذا أفسد كل مخططاتي ، لقد قتلتِ كل الأماني البريئة ، نحن بالكاد لم نبدأ بكتابة أول سطر ، والآن أرى نفسي في آخر صفحة من كتيّبنا . أنا أقف على حافة سطرنا الأخير يا آشلي ، ليس هنالك ما يستحق أن أضعه إلا نقطة سوداء كبيرة كعملك . أنتِ منحتني الأمان بحبك ، و لم تكن نظراتكِ تُخفي كل هذه المشاهد التي رأيتها قبل سويعات من الآن ..

ولو تمكنت من قراءة عنوان بسيط عن هذا السيناريو لتركتكِ أبداً ، أشعر بإجهادٍ يفتك بما تبقى لي من قوة،ولا أملك حيلةً سوى الوقوف عاجزاً. حتى قدرتي على ذلك بدأت بالتلاشي شيئاً فشيئاً ، سقوطي أصبح وشيكاً جدّاً، أرضٌ مبللة، وطين يصنع آثار أقدامي في مزرعة صغيرة أقمت بها حزني الأول ..

طعم الماء يصبح مريراً إن صُوحب بالطين ، تلك السقطة مرغت ما تبقى من ملامحي بالتراب ، يا إلهي ، أشعر بتضاربٍ قاسٍ في أحاسيسي ، فمطر سمائك قد تشبّع بطين أرضك ، إنها لعنة السماء التي حلّت بجسدي ..

كل الأشياء لا تبدو على ما يُرام ..

ومنزلي لم يعد آمناً ، حتى العمل أصبح كئيباً لا يُطاق، رئيسي أندرسون ينتصر في كل شيء ، قراراته هي الأعلى دائماً، ولعلّ قراره الأخير بحرف مسار زوجته التائبة أصابني في مقتل، أنا حزين بما يكفي لأرى كل الأشياء سوداء يا آشلي. الألوان فقدت رقّة بريقها من حولي ، زرقة السماء اختلطت بالرماد ، وحضورك أصبح كعدمه حين أختلس النظر إليكِ وأنتِ تذهبين لشراء أغراضك . لا أخفيكِ ، حبي لكِ ساعدني على إتمام توبتك الأخيرة من ذنبي ، لقد قطعت كافة وسائل الاتصالات فيما بيننا ، وتركتكِ حرةً أبيّة لتفعلي ما يُمليه ضميرك. امضي فقط ، وأوقدي شموع حياتك وسيري بالدرب الأكثر وضوحاً لعينيكِ .

قررتُ أن أسكن بمكان آخر ..

في زاويةٍ لا يراها أيّ عابر. بحثٌ طويل أخذني إلى منطقة ليست ببعيدة عن ريجينت ، شارع انتكاستي الأولى ودموعي المقتولة . القدر يأخذني لذات المكان لكن بصورة أكثر احتراماً من السابق ، كنتُ أبكي في مزرعة صغيرة كمحصلة خيانة ، وأمسيتُ الآن في منزلٍ أنيق يحترم رغباتي، مسبحٌ صغير يسلخ ذنوب يومي ، و ملعب تنس لأستمتع باللعب مع الأصدقاء.

تكاليف هذا المترل باهظة ، و صرف هذا الكم الهائل من الباوندات يجعلني قاب قوسين أو أدنى من الفقر ، هذا الترف يبدو مؤقتاً إن وضعت بالحُسبان إمكانية طرد أندرسون لي بأي لحظة ، نظراته تخبئ خبر معرفته بعلاقتي السابقة مع آشلي، وكأقل إجراء ممكن ، بإمكانه أن يطردني من الشركة كانتقام بسيط لما ارتكبته بحقه، فقد جنيت على لحظاته الحميمة وسرقت من شفتيها قُبلاً ليست من حقي شرعاً رغم موافقتها التامة عليها ، بإمكان آشلي أن تُكمل مسيرة توبتها و تعترف لزوجها بكل شيء ، بكل شيء .

أشعر بألم فقدان والديّ ..

أمي الراحلة وسط كومة حديد و أبي الذي خرج من البلاد و لم يعد حتى الآن ، منذ الوهلة الأولى لصدمتي العاطفية الجديدة، شعرت بأني أحتاج إلى أم تستقطب حواسي المسروقة من آشلي، و أب يُعيد الثقة لحنجرتي المبحوحة ، لابد من الحُصول على مشاعري المسلوبة بأيّ ثمن .

بدأت بولوج النوادي الليلية ، و أصبحت أتعاطى الفودكا بكثرة، لستُ وضيعاً إلى هذا الحد و أنا أرتكب تلك الأشياء..

أنا أشرب لأختبئ وسط خيالي ، و أهرب من الواقع المرير الذي أتعايشه مع فقدان أعزّ ما أملك . أبحث عن أنثى، أو عاهرة

لا يُهم ، أتمايل مع رقصاتها و أتلذذ بنعيم جسدها، أمارس الجنس معها و أصل إلى قمّة نشوتي ، أريد أن أجعل تفكيري متمحوراً بكيفية إمتاعها قدر المُستطاع لتمتّعني أكثر و أكثر ..

كم سيبدو يومي طويلاً و أنا أنتقل من لذّةٍ لأخرى ، فلا يُوجد من يشد وثاقي بعهدٍ أو حب و أنا أمارس الجنس مع عدّة جميلات ، كل ما أعرفه هو أن النادل هنا يحقّق لي كل رغباتي الصغيرة و بمبالغ معقولة بالنسبة لمرتّبي.

تُدهشني تلك التكتلات البشرية على طاولتي ..

فتيات يأتين من كل صوب . جميلةٌ لا تملك جسداً مثيراً، أو قبيحة لها جسد فاتن ، أو أنثى تملك كل ذلك ، لكن للأسف، أمثالهنّ محجوزات لكبار القوم في مانشستر، نحن الفُقراء يجب أن نُؤمن بحظنا ، و نرضى بالموجود في هذا البار. شُكراً للظلام، هو الوحيد القادر برفقة كأس على أن يجعل جميع النسوة سواء، هذا الظلام الذي يربطه المثقفون بالجهل، و يحوكون له أشدّ الأمثال سميّة ، هو المتمكن من لملمة شمل إنسان يائس خذلته ظروف الحياة ، بضعة باوندات بإمكانها أن تنقلكَ من الواقع إلى الخيال، لتستطيع أن تحقق به كل أحلامك ، و تصنع من اليأسِ فرحةً طافحة ، ثم تنام طويلاً طويلاً دون أن تشعر بلحظة ألم تغتال واقعك الشاحب .

القانون في بريطانيا يقف معك إن ارتكبت جُرماً و أنتَ ثمل ..

تحديداً حينما تُثير نزاعاً كبيراً وسط البار لتحاول أن تنال رضا إحداهن ..

هنالك فتاة تجيد الرقص ، صغيرةٌ بالعُمر و تُناسب طموحات مزاجي الحاد ، حاولت التودد لها بعدّة وسائل ممكنة، اقتربت أكثر من المسرح لأشاهد تفاصيلها عن قُرب. أبتسم لها بلذّة منتشٍ ، و أهمس لها بكلمات مترنحة مثلي لا تتزن على معنى واضح ..

حقيقةً ، كان تفاعلها معي مثيراً للغاية ، أمرٌ كهذا دفعني لأن أتخذ خُطوة أكثر جُرأة حين انتهت من العرض، أمسكت معصمها و بدأت بالتحديق إلى لون عينيها ، أو ربما لون عدساتها، لستُ أدري ، أرى في تلك العينين منبعاً لنهر التايمز، زُرقتها تشي بجمال لم أره سوى بعيني آشلي اللعينة، التأمل ممتع في عينين جميلتين كهاتين ، لكن لسوء حظي العاثر! رأيت رجلاً مُقبلاً من هنالك ، ضخم الجثة وعيناه ترسمان الشر بكل ألوانه، اقترب و نزع يدي من معصمها وبدأ ينهال عليّ بالضرب حتى فقدت الوعي ، تماماً .

فتحت عينيّ ببطء ، و سحبت ذلك الغطاء الأخضر منها. هذا المكان نظيف ، رائحته عطِرة و مرتّب بشكلٍ أنيق ، ما هذه البقعة الطاهرة ؟ و من أحضرني إلى هنا ؟ طُرِقَ الباب بهدوء .. بعد بُرهة ، دخلت أنثى جميلة تكتسي البياض ، ذات شعرٍ طويلٍ أشقر و ملامح اسكتلندية ..

– كيف حالك الآن سيدي جاك ؟ هل أنتَ على ما يرام؟

– أنا بخير ، من أنتِ ؟

أخذَت بالنظر إلى ذلك المحلول ، و بطريقةٍ ما ، أدخلته بتلك الإبرة و طلبت مني الاستلقاء بهدوء على معدتي .. وقالت لي ..

– أنتَ مُصاب بعدة طعنات في جانبكَ الأيسر ، و هنالك كسر بسيط في يدكَ اليُمنى ، احذر أثناء قيامك بهذا فقد نزفت كثيراً.

بينما تقوم بغرز تلك الإبرة وسطَ آهات ألمي قُلت لها..

– مُنذ متى و أنا هنا ؟

تفادت إجابتي و رحلت برفقة أدواتها من حيث أتت ، وبقيت أتحسس موضع تلك الإبرة بأطراف أصابعي الباردة، يبدو أن هنالك خطباً ما ، فأنا لا أدرك ماذا يحصل لي تحديداً بهذا المكان ! أشعر بأن جسدي مُنهك تماماً ، قدمي معلّقة بزاوية

أربعينية و عيني اليُمنى منتفخة قليلاً بشكلٍ يحجب بعض زوايا الرؤية لديّ .

هذا الألم مقزز ، فهو يصنع في ملامحي شُحوباً عميقاً. الإحساس بالعجز يُقحم في رأسي فكرة جادة للانتحار . هذه الحياة وُجدت لكي نتحرك و نعمل في ميادينها ، و جلوسي في مكانٍ واحد يعني أن هنالك أفكاراً سوداء تحوم حول مُخيلتي باستمرار ، كالقفز من الطابق العاشر، أو غرز إبرة مجّوفة في وريدي ، و ربما تناول جُرعة زائدة من تلك الأدوية المُنتشرة على الطاولة . نُور الشمس يختبئ خلف هذه الستارة ليُعلن عليّ الظلام ، هذه النافذة لا تُقحم سوى غروبها الكئيب و كأنها تُشير إلى نهايتي على طريقتها الخاصة.

طُرقَ الباب و تم دفعه على مهل ..

تظاهرتُ بالنوم هرباً من أسئلة تلك الممرضة الكئيبة التي تقوم بإجراءات عملها بصمتٍ مُطبق ، أغمضت عينيّ و كأني بسُباتٍ شتوي عميق وسط هذه الأجواء الباردة..

و مع ذلك الهدوء الرهيب ، كان هنالك صوت حذاء عالٍ، يتحرك بانسيابية لم ألمسها من تلك الممرضة على مدى ثلاثة أيام، و رائحة عطر فوّاحة ترامت بكل أطراف غرفتي، ينتابني

فُضول لمعرفة من تذكرني وسط وحدتي الطويلة ، لكني سأظل مُلزماً على إتمام كذبتي ما دُمت خطوت الخطوة الأولى بها .

هنالك أنثى تبكي بجواري ، همساتها الممزوجة بالدموع غير واضحة ، و لا أدري ماذا تقول ، اقترب ذلك الصوت من أذني الجريحة و بدا واضحاً هذه المرّة ..

- جاكي .. جاكي .. ؟!

و مع ارتفاع معدّل فضولي ، استدرت ببطء و نظرت إلى عينيها ، لقد كانت مفاجأة غير متوقعة أبداً ، أنا الغارق وحدي في شوارع و أحياء هذه المدينة ، تأتيني هذه المحمّلة بالأوجاع من مكانٍ بعيد ، ليس سهلاً أن تخرج من لندن في هذه الفترة من السنة ، لكنها فضّلت القُدوم لترى ماذا حلّ بي.. قبّلتني بشوق و قلت لها بلهفة ..

- مضى زمنٌ طويل يا كريستينا، ظُهورك بهذه الهيئة يُشير إلى أنك تخطّيت محنتك المرضية يا جميلتي ، هل هذا صحيح ؟ كيفَ تمكّنتِ من الحدّ منه ؟

- هذا المرض أشبه بورقة خريف باهتة يا جاكي ، فهو يُنسيكَ ملامح الربيع البهيّة و أمطار الشتاء الباردة وحتّى قسوة الصيف في لندن ، أفجعني خبر غيبوبتكَ التي استمرت لشهرٍ كامل ، كيف حالك الآن؟

أبرزتُ عينيّ اللتين اكتستا الرهبة ، و عضضت على شفتي السفلى بقسوة ..

- شهرٌ كامل ؟ أيُعقل هذا ؟

جلست بجواري و أودعت رأسي على صدرها و بدأت بالبُكاء ..

- لا تقلق أرجوك ، كان هنالك ارتجاج قوي في مخك، وكُنت في وضع لا تُحسد عليه حين ضُربت من أولئك السفلة ، و أنا أقوم الآن بمُقاضاتهم منذ نصف شهر ، وما زالت القضية معلّقة و لم نصل للجلسة الأخيرة التي تحدّد نوع عقوبتهم .

- لا أذكر شيئاً من ذلك ، لكن مُنذ متى أصبحتِ مُحامية؟

وضعت رأسي على الوسادة و أخرجت من حقيبتها أحمر شفاه و أخذت برسمِهِ على حدود شفاهها البارزة، كانت تحدّق للمرآة بطريقة غريبة و كأنها تراها لأول مرّة..

- هذه الحياة تعلّمنا الكثير يا جاك ، و تأخذنا إلى حيث لا نحتسب ، أنا لم أتوقع في يوم ما أن أكون مُحامية تحمل بين طيّات ملفاتها قضايا المُنتكِسين في هذه البلاد الكبيرة، لقد درست القانون حتى ارتويت يا صديقي.

هذه المدة الطويلة لم تكن كافية لتُغيّر من أطباع كريستينا، لُغتها الحادة ، شعرها القصير ، و تدخينها بشراهة. فالمرض أجبرها على اتخاذ نمط اللامبالاة و السير على روتين مُحدّد حتى تمكنت من تجاوز محنته ، و ها هي تظهر حاليّاً بشكلٍ مُغاير . أصبحت مهتمّة بأحمر الشفاه ، و أصبح لها طُرقها الخاصة في إمساك السيجار على طُرق رجال المافيا ، وتبدو أكثر وحشية من السابق و أصبح بإمكانها أن تضرب رجلاً ! هذا المرض أكسبها قوة الرجال بالتحمّل و صبر الصيّاد في انتظاره للسمك.

نظرت إليّ و قالت ..

– أين هي خليلتك؟ رسائلك الإلكترونية عنها زادتني شوقاً لأراها؟ أظنها آشلي أليس كذلك جاكي؟

انتابني صمتٌ رهيب ، و توغلت بي الكثير من الأحاسيس الضارة ، لماذا تجدّدين ذكراها يا كريستي في أزمتي الصحية هذه؟ لماذا تُعيدين إشعال الشمعة التي أطفأها القدر على أيدي تلك العصابة ؟ قُلت ببلاهة ..

– من هي آشلي ؟

(II)

ما أكبر هذه الحياة ، و ما أغرب قُرعة الله بها ..

لا يوجد هنالك من يدري أين سيُولد ، وكيف قُدِّر له أن يعيش ، أشقيٌّ هو أم سعيد ؟ أفقيراً سيكون أم غنيّاً ؟ بأي دولةٍ سيهبط من السماء ؟ بأيّ نُطفةٍ ستختبئ روحه لتكبر ؟ و من ستُشرف على رعاية ابتسامتهِ الأولى؟ أمٌّ ودود أم عاهرةٌ جحود؟ نحن نتاج اتصال روحين ، و لا تأخذ نُطفنا إلا ما تشتهي من صفات آبائنا و أمهاتنا ، و تتجسّد بنا حين نكبر.

لماذا قدِّر لآشلي أن تنام بحضن رجلٍ غيري ؟

هل يعلم الله بأنها لا تُناسبني ؟ أم أن حظي المريض لا يود أن يُشفى ؟ لم يعد هنالك ما أستند عليه ، رحيلها أفقدني توازني و أنهك جسدي المتعب ، إني أقف على شفير الموت ، بين خطّين حادين ، أرقب الدنيا التي تحتضن دفئك ، و أتأمل ما وراء الموت لعلّي أجد آشلي أخرى في الجنة .

لم يعد سِربال الانتظار مُجدياً يا آشلي ، لقد تمزّق بما يكفي بغيابك و لم يعد ساتراً لجروحي . تأملتُ عطفكِ على فقري، و لم أجد ما أُسنِدت آمالي عليه . لم أتمكن من تعليقكِ على مشجب أحلامي ، ولا حتّى على جِدار أمنياتي، أنتِ كنسمة

قدرٍ مرّت بجواري و استقرت في مكانٍ بعيدٍ يصعب تحديده .

عُدت إلى مترلي منذ عشرين يوماً .. و مازلت أردم كلّ ما يتعلق بكِ ..

صُوركِ التي تختبئ بين أدراجي ..

سواركِ الذهبي الذي نسيتهِ يوماً و لم تعودي لأخذه..

دُبكِ ذو الفرو الناعم و الذي كان يُشاطرني النوم في أحضانك ..

أشعلت سيجارتي الرخيصة و شرعتُ بتدخينها ، أُمسكُ صورتكِ و أتأمل في نفسي ؛ هل ما زلتِ تبتسمين بهذا الشكل؟ تنفستُ السيجارة بعُمق و وضعتُ مقدمتها بقسوة على أرنبة أنفكِ . أخذت بالضغط عليها بقوة دائرية حتى اختبَأ وجهكِ بين الرماد ، و رميت بقاياكِ وسط تلك المدفأة التي تجاورني.

في نادي Harvest الرياضي ..

ذلك الذي عزّز من علاقتي معكِ يا آشلي حين كنتِ تحافظين على لياقتكِ. أذكر حينها أننا كنّا نؤدي التمارين معاً في نهاية الأسبوع مع المدرّب ديفيد، و كنت أنتظر الفترة الصباحية بشوق لنؤديها معاً . كان هنالك تمرين فاسق يَدّعي

ديفيد بأنه يساعد على شد عضلات الظهر ، نضع أطراف أيدينا على نهايات أطراف أرجلنا لمدة دقيقتين ..

هذه المجموعة من التمارين يجب أن تُؤدى بين شخصين متجاورين ، و كُنتُ جاركِ الذي ينتظر ذلك التمرين . أعترف حينها بأني شخص منحرف مع ساعات الصباح الأولى ، إذ تقومين بشد ظهركِ وتقومين بذات الحين بشد رغبتي لسرقة نظرة تأملية على ثَدييكِ المتدلّيين كتفاح هارب على غصن متهالك ، لا أشك أبداً بأن عطركِ المتسلّلَ إلى أنفي كان جرّاء التحامهما معاً أثناء التمرين . لم يصادف أن اقتربت امرأة فاتنة مني إلى هذا الحد ، و لا أظن أنها تقصد إثارتي بقدر ما أنها تؤدي المطلوب منها فقط .

ومع انقضاء تلك التمارين ..

نذهب للراحة ، ونمرّر الأحاديث بين فنجاني قهوتنا، نتبادل الابتسامات و الأمنيات الخاصة بفبراير. وجدنا أن أمنياتنا قريبة من بعضها، كالقفز المظلي وسط لندن، و السكنى في جزيرة نائية محفوفة بالشلالات . و من هنا نشأت بذرة الإعجاب فيما بيننا ، و أخذت بالنمو مع المواعيد التي عزّزنا بها علاقتنا حتى أصبحت شجرة يانعة ، تُنتج الثمر .

استيقظت من نزوة ذكرياتي على رنين جرس مترلي الذي

ملأ رماد الماضي بألوان واقعي المرير ، يبدو أن كريستينا سبقت موعدنا بدقائق من مساء هذا اليوم .

فتحتُ الباب لتدلف بعد تبادلنا لتحايا المساء . لقد اتخذت من ذلك الكرسي مقعداً لتلتقط أنفاسها المبعثرة جرّاء صعودها الدرج ، قُلت لها بنبرة ساخرة ..

– لقد كبرتِ يا جدتي ، و بالكاد تلتقطين أنفاسكِ .

ضحكت بصوتٍ هادئ و أردفت قائلة ..

– و لقد بدأت بالتخريف و النسيان قبلي أيها المنتكس.

أمسكتُ يدها بصمت و صعدنا إلى الدور العلوي ، فأنا لا أريد أن أرى أيَّ أنثى في هذا المجلس اللعين ! هذا المجلس شَهد بكافة أثاثه و أسماكه القاطنة بالحوض أول قُبلة تناولتها آشلي من شفتيّ حين كان مؤثثاً بمترلي القديم ، هذه القُبلة راسخة في ذهني و لم يُذهبها فقداني النصفي لذاكرتي ، لقد كان الفاصل بين قُبلةٍ و أخرى هو النظر إلى السمك بجوارنا لنلتقط أنفاسنا المتوترة و نعاود بثّها بوتيرة متوازية تُشبع البرد الذي يحف شفاهنا .

في الطابق الثاني ..

طلبتُ من كريستينا بأن تأتي معي إلى المطبخ لنُجهّز شراباً

دافئاً في هذا البرد ، و اقترحت عليّ بأن نصنع قهوة فرنسية لتمنحنا نشوة دفء ، و مزاجاً سلساً بإمكانه أن ينتقل من حديثٍ لآخر دون أن يتوقف باستراحة مُحارب، و بينما أقوم بملء الماء لتسخينه ، قلت لها ..

- لماذا يخذلنا الحدس دائماً و نتصوّر فكرة خاطئة في بداية كل الأمور ؟ لم أكن أتوقع وقفتكِ بجواري طَوال هذه المدة يا كريستي!

أخرجت علكة من حقيبتها و أخذت بغرز أسنانها بها وكأنها تود أن تنقل الحديث لمجرى آخر ..

- لا يبقى بالجوار إلا الأثمن ، و كلُّ ما رحل مجرّد سحابة عابرة غير مأسوفٍ عليها جاكي ..

شربنا القهوة ، و تبادلنا الأحاديث حتى ساعات الصباح الأولى ، و حان وقت فيلم السهرة ..

- سنُشاهد فيلم A Walk To Remember ، يبدو جميلاً من غلافه ..

- لماذا لا نُشاهد فيلماً مُرعباً ؟

- لا أحبذ الأفلام المُرعبة في هذا الوقت ..

بدأتْ بالضَّحك و وصفتني بالجبان . أخرجتُ الـــ DVD

من العلبة و وضعته بمشغّل الأفلام ليبدأ العرض . الفشار جاهز و عصير الليمون بارد بما يكفي لأن يُكمل ساعتين دُون أن يُصبح حارّاً.

(بعد ساعة من المتابعة)

و في أثناء مُشاهدتنا للفيلم ، تخلّلت لقطاته قُبلات بين ابنة القسيس الجميلة المُحافظة و بين صديقها في المدرسة ، كم كان مُدهشاً هذا اللقاء الذي يصنع الحب دُون أدنى ميعاد ، وكم هو لذيذٌ أن تجتمع جاذبية الفقر بالغنى من خلال قوانين الحب التي لم تكتشفها معادلات نيوتن !

وبينما أتأمل بأحداثه ..

استدرت عن شمالي لأرى تذبذب عيني كريستينا بين موجتي النوم و الاستيقاظ ، تُحاول تارةً أن تبقى مستيقظة حين تفرك عينيها بإصبعها ، و تحاول تارةً أخرى أن تنام حين تسنُد رقبتها على الوسادة خلفها ..

– كعادتك ، لا تشهدين أحداث الفيلم بالكامل و تُفضّلين أن تنسجي في منتصفها ..

التفتت رقبتها صوبي و ابتسمت ابتسامة نائمة و أسندت رأسها على كتفي الأيسر . هذا الشُّعور يمزجني بين حاضرٍ لم

أرسمه من قَبل و ماضٍ اندثر مع طمس ملامح آشلي الأخيرة، رقبة كريستي وضعتني في موقفٍ لا أحسد عليه ، هل أتابع أحداث الفيلم أم أتفرّغ لألملم قطع الماضي المتناثرة أم أكتفي بشم رائحة شعرها ؟

أذكر آشلي جيداً عندما كُنت أشاهد الأفلام برفقتها حين يكون زوجها على سفر ..

كانت تُثرثر بغضب حين تجد حدثاً لا يروق لها ، وتبكي بوفاة بطل أو حبيبته . أذكر قبلاتها الحارة مع نهاية الفيلم و كأنها تُحاكي أحداثه الأخيرة إن كان بنهاية سعيدة . في المُقابل، كانت تُحجم دمعتها عن الظهور في حال انفصال حبيب عن حبيبته بأيّ صُورةٍ كانت و تكتفي بالنوم على صدري . لا أتذكر يوماً أنها غفت على كتفي أثناء مُشاهدة فيلم ، أو حتى أثناء سفرنا إلى هولندا بالقطار الممل كما تفعل كريستينا الآن !

هل تذكرين يا آشلي قفزة روز من القارب لكي تعود إلى أحضان جاك في تايتنك ؟ هل تذكرين حين اشتعل قلبكِ بالغيرة من فعلتها و قُلتِ بالحرف الواحد : لو كُنتَ مكانها لقفزت إلى قلبك مباشرةً ؟ أين أنتِ عن قلبي الآن ؟ هل كُنتِ تُحاكين أحداث الفيلم أيضاً و قُمتِ بإدراج ثرثرة في صفحتي الممتلئة بكِ؟ أين قفزتكِ لتبحثي عن مقر سكني الجديد ؟ وماذا حلّ

بمنزلي القديم ؟ هل تعلمين بأني على قيد الحياة ؟ أنتِ لا تعلمين شيئاً أبداً .

و مع نهاية الفيلم ..

أخذتُ بخفض معدّل صوت التلفاز ، و في أثناء ذلك تحرّكت كريستينا و كأنها انتبهت لنهايته ، ابتسمت و أخذت برفع رأسها عن كتفي المخدّر إزاء نومها ، و قامت بتطويق يديها حول عنقي ، و في أثناء نهوضها انتبهت لطعنتي المؤلمة وقامت بتقبيل كتفي و قالت ..

– ليتك تعلم حجم الدفء الذي منحه هذا الكتف لي..

اندهشت من رقّة قوسي عينيها في سمائي ، اقتربت شيئاً فشيئاً حتى زرعت قُبلة طويلة نائمة بشفتي العُليا ، لأظل مستسلماً لكل ما تفعله تماماً .

حملت حقيبتي على ظهري ، و أخذت بشق طريقي إلى المترل على درّاجتي بعد ساعاتٍ جامعية رتيبة لهذا اليوم . منذ مدّة طويلة لم أشتهِ قدوم إجازة نهاية الأسبوع لأنعم بالراحة، ولأمارس بعض الشغب مع أصدقائي و صديقاتي بمُدن الألعاب الترفيهية التي لا تنتهي في لندن . دلفتُ إلى المترل وقُمت بتعليق حقيبتي لأتلقّى ترحيباً كبيراً بقدر حبي لوالدتي مونيكا.

– كيف كان يومك بالجامعة يا بُني ؟

حضنتها بقوّة و أنا أردّد كلمات الاشتياق لها ..

– كان جميلاً يا أمي ، كجمالي حين أكون بين أحضانك..

أمي ، كم أحب أن أرى صُورتي في عينيها ، إنها مرآة حُبٍّ طبيعية تنشأ من تكوّن دموعها حين تشتاق إلي ، كيف لا و هي التي اعتنت بصُراخي المزعج حين كنتُ طفلاً و غدوت اليوم ناضجاً مُتحدثاً بفضلها و كرمها عليّ .

هي تُؤدي دور الأب و الأم بآنٍ واحد ، والدي غاريث الذي غادر مع قوّات التحالف لتحرير الكويت ، و انقطعت أخباره تماماً و لا نعلم ماذا حصل له ، هل هو ميت الآن ؟ أم أنه يتعرّض لتعذيبٍ يُنهك جسده من قِبل العراقيين ؟ كم أشعر بثِقل

فقده على قلب أمي و قلبي ، إني أشعر بمسؤولية المترل الآن ، وأستشعر آلام انتظارها على عتبات الليل الطويل . أُدرك جيداً أن الليل وحده لا يأتي بالأمنيات مهما علقنا آمالنا بنهاياته، ولن تستطيع الشمس جلبها لنا و إن تأرجحت أنظارنا بنُورها في آنٍ واحد .

لقد اتفقنا أنا و كريستينا بالجامعة على أن نذهب إلى مدينة الألعاب مساءً ، تمنيت أن أراها خارج الإطار الجامعي و كيف سيبدو شكلها دُون معطفها الفيزيائي الأبيض ..

كيف ستكون تسريحة شعرها و ماذا سترتدي من ملابس نسائية فاتنة ؟ لقد صارحتها بعد الاتفاق بأني سأطبق قانون نيوتن الثالث بحذافيره في حال وجدت فعلاً يستحق ردّة فعلي تجاهها ، و حينها اكتفت بابتسامة خجولة، و لم تكن جادة بما يُرضي غروري تجاه ما صارحتها به ..

(في العاشرة من مساء هذا اليوم)

- أين أنتِ يا كريستي ؟
- لنلتقِ في شارع ويستبورن بعد ١٠ دقائق من الآن، سأكون هنالك ..

وجودي في لندن ، يعني حضوري في قلب أكبر صخب عالمي بشري ، أشعر بصعوبة القيادة وسط هذا الزحام في ويستبورن ، لندن تعج بضجيج كل قارة من قارات العالم، فما أكثر الآسيويين و الأفريقيين بها ..

إنهم يتلقون معاملة جيدة تكفي لأن يجعلوا من لندن مُستقرّاً لهم ، و وطناً يرزقهم حياةً كريمة بعيداً عن الفساد الآسيوي والفقر الأفريقي ، فآسيا الثريّة بالغالب تُعاني من تضخّم معدة كل مسؤول يقبع تحت سقف الحاكم ليتناول فضلاته التي توفر له و لأحفاد أحفاده الحياة ، و يتشكّل الفقر الأفريقي من تجاهل الراعي لرعيته بحثاً عن رضا أوروبي أمريكي يوفر لهم الحماية اللازمة لاستمرار أنظمتهم على ذات السياق لأطول وقت ممكن تحت غطاءٍ يراه المواطن جميلاً ويراه الآخرون مجرّد قذارة..

و أخيراً ، أنا بالشارع الذي سأقِل به كريستي لنذهب إلى ما خطّطنا له . توقفت بجوار مطعم إيطالي يقدّم اسباغيتي ساخنة، و متجر لبيع المجوهرات الثمينة . في أثناء انتظاري راودتني فكرة شراء سوار ذهبي يتزيّن بيدي كريستينا ، سأبدو لطيفاً إن فاجأتها بهدية غير متوقعة لهذا اليوم ..

ركضت تجاه المتجر لأشتريه قبل قدومها ..

و في لحظة دخولي له ، كنتُ بالكاد أقوم بتجميع كلماتي من التعب ..

- مرحباً ، أبحث عن سوار ذهبي يليق بفتاة جميلة و بسعر معقول يا صديقي ..

انتظرت لدقيقة حتى عاد ، و عرض عليّ مجموعة كبيرة من الأساور و قُمت بالإشارة على سوارٍ منها..

- تبلغ قيمته ٧٥ باوناً ..
- جميل ، خذ المبلغ و أعطني إياه ..
- ألا تُريد تغليفه ؟

التقطت السوار و ركضت ، و قُلت له أثناء ركضي ..

- شُكراً لا أريد ذلك فأنا على عجلة من أمري ..

عُدت إلى الشارع لأتفاجأ بوجودها قُرب مركبتي ، و في هذه اللحظة قُمت بإخفاء السوار بخفّة في جيب بنطالي ليُصبح موارى عنها ..

- أنا هنا يا كريستي ، عذراً كنت أبحث عنكِ بالجانب الآخر من الشارع ..
- لا بأس يا صديقي ، هيا لنذهب سوياً في مركبتي ..
- و ماذا عن مركبتي ؟
- دعها هنا ، نريد أن نستمتع معاً و نبقى بجوار بعضنا بعضاً لأطول وقت ممكن بدلاً من لحاقك بنا بسيارتك..
- حسناً ، انتظريني حتى أقوم بإطفاء مُحركها ..

يبدو أنها سعيدة لحُسن حظي ، سأحاول أن أصطاد ودّها وسط هذا الاكتظاظ البشري ..

قُمت بإطفاء محرّك المركبة ، و ذهبت إلى مركبتها ، تحديداً إلى الباب المجاور لها لأقوم بفتحه ، و حين فتحته وجدتُ رجلاً! ماذا يحدث بالضبط ؟ فأنا لم أرهُ بسبب العازل الأسود على الزجاج !

- تعال إلى هذا المقعد خلفي يا جاكي ..

دلفت و كُلي دهشة ، من هذا الرجل الذي يجلس بجوارها؟ و من هذه الفتاة الجميلة التي تجلس بجواري ؟

- مرحباً بكم ..

- أهلاً و سهلاً بك يا جاك ، سُررت لرؤيتك ..

ألقيتُ التحيّة بحرارة ، و داخلي ما زال مجمّداً يبحث عن حرارة جواب ليستفيق من حاله ، و شرعت حينها كريستي بالحديث وسط موسيقى البوب و صيحات مايكل جاكسون...

- لأعرّفك على الموجودين جاكي . ستيف ، جاري القديم قبل أن ينتقل إلى مانشستر لإكمال دراساته العُليا، وآشلي التي أتت برفقته ، صديقة ستيف و جارته الحالية في

مانشستر ، ألا ترى ماذا تصنع المصادفة ؟

دخل الجميع بأجواء ضاحكة رغم إحباطي الشديد ، لماذا لم تأتِ كريستي دون أحد ؟ تبّاً لغبائها..

لم أكن سعيداً بالمعنى التام ، ماذا تقصد من إتيانها بشخصين لم أرهما من قبل ؟ هل تلعب المصادفة دورها بالموضوع أم أنها تتعّمد ذلك لكي تتجنب الاحتكاك المباشر بي ؟ مزاجيتها المتقلبة تُؤيد و تُرجّح كفة تعمّدها لهذا الأمر و لا أعلم لماذا تحديداً ! هل لأني لا أستحق ودها ؟

أم أنها لا تتودد للرجال إجمالاً كما أراها بالحرم الجامعي؟ إنها أنثى تتخّذ من الانطواء وسيلة لتُمارس طُقوسها الخاصة، فهي تُدخن بشراهة و تشرب بإسراف في النوادي الليلية المترامية على أطراف لندن ، ولا تكترث لما يدور حولها ..

هي تسعى لإسعاد نفسها في المقام الأول ثم يأتي الناس من ضمن حساباتها بعد ذلك .

وصلنا إلى الملاهي ..

و تفرقنا جميعاً عن بعضنا بعضاً لمدة ساعة تقريباً ..

و بينما كنتُ أشاهد الفتية و هم يلعبون ، شعرت بلمسة إصبع نحيل ينقر كتفي كطائر صغير ..

- لماذا أنت وحدك يا جاك ؟
- لا شيء يا آشلي . أنا سعيد حقّاً ، تأملي الأطفال وهم يلهون ، منظرهم رائع ..
- .....
- أين كريستينا و ستيف ؟
- بالجوار ، يلعبون ألعاباً خطرة و تستهلك الكثير من الوقت . هل تشاركني العشاء ؟
- سأكون سعيداً بذلك ..

بحثنا أنا و آشلي عن مطعم لنسد رمق جوعنا ، و بينما نسير في أرجاء هذه الملاهي ، كنّا نقوم بالتعليق على صُراخ الأطفال و الضجيج المصاحب لهم أثناء اللعب حتى وجدنا مطعماً جيداً يقدّم الوجبات السريعة ..

جلسنا على طاولة مستديرة ، و تبادلنا أحاديث الماضي وعلاقتنا بالمُدن الترفيهية قبل قُدوم العشاء . أخبرتها بأن طفولتي لم تكن مُشبعة للشقي الذي يسكن بداخلي ، فقد كنّا نعاني من تفكّك أسري و مشكلات كثيرة لا تنتهي . كان أبي كثير الخروج من المترل ولا يعود إلا بساعاتٍ متأخرة بشكلٍ يومي، و أمي التي تُعاني من أمراض بالقلب و الدماغ مما يسبّب لها أزمات

صحية تمزّق قلبي الذي يُحبها ..

كانت تتأمل كلامي بحسرة ، و قالت ..

- والدي متوفى ، و نحن نعيش على الأرباح التي تنتجها لنا شركتنا التي تركها لنا قبل مماته ، هل سمعت من قبل عن شركة تايلر ؟

- لم أسمع بها من قبل ..

- هي شركة مُنتجات غذائية على مستوى بريطانيا، ولكننا أصبحنا نهاب الإفلاس فتسقط الشركة ، لايوجد هنالك أي مصدر نعيش به سواها . حتى والدتي تركت أكاديمية التدريس لتسعى وراء ثروتنا بكل ما تملك من جُهد ..

بدأ صوتها بالانحراف عن مساره الطبيعي .. وأضافت..

- أخاف من المستقبل يا جاك ..

أمسكت يدها بقوّة .. و قُلت لها بصوتٍ بريء ..

- جميعنا نخاف منه يا آشلي ، يجب أن نفعل ما بوسعنا فقط و لنترك الساعات القادمة و شأنها .

بعد دقائق من الصمت ، وصل الطعام و طلب النادل أجره، ست قطع دجاج ، كل قطعة بقيمة ثلاثة باوندات، طلبت من آشلي أن تحسب المبلغ الإجمالي و لكنها اكتفت بضحكةٍ خجول، ابتسمتُ و أخرجت له المبلغ المطلوب وقلت لها وسط

ضحكات متبادلة فيما بيننا ..

- ما علاقتك بالرياضيات ؟

غطّت عينيها بيديها و قالت ..

- صفر ..

سحبت يديها ، و قُمت بتعليمها جدول الضرب عن طريق أصابعها ..

- على الطاولة الآن ست قطع دجاج ، و مبلغ كل قطعة ثلاث باوندات . هذه ثلاث أصابع تمثّل ثمن قطعة ، وهذه ثلاث أصابع أخرى تمثّل ثمن قطعتين ، و هذه ثلاث أصابع أيضاً تمثل قيمة القطعة الثالثة ..

ضحكت لأنه لم يتبقَّ سوى إصبع واحد بيدها ، و حينها اضطررت لضم يدي ليديها لنمثل ثمن القطع المتبقّية ..

- و هذا ثمن القطعة الرابعة بالاشتراك بين إصبعين مني وإصبعٍ منكِ ، و هذا ثمن الخامسة و هذا ثمن السادسة. الآن قوميَ بعدّ كل الأصابع المضمومة بعضها على بعض؟

نظرت إلى وضع أيدينا بخجل و قالت ..

- ١٨ باوندا ..

- رائع ، يجب أن أختبركِ لأتحقق من وصول المعلومة

جيداً..

- لقد برد الدجاج جاكي .. !

- سؤال فقط و بعدها نبدأ الأكل .. ماذا لو لدينا أربع قطع، ثمن القطعة باوندان ؟

فرَدت يديها على الطاولة و همّت بالحساب ، و قالت بعد بُرهة من التفكير ..

- ٨ باوندات أليس كذلك ؟

- و ماذا عن هذين الإصبعين الزائدين ؟

- لا شأن لهما ، كاللذين تفاديتهما قبل قليل و أنت تعلّمني جدول الضرب..

- رائع رائع ..

تناولنا الطعام على أنغام موسيقى هادئة بداخل المطعم . آشلي متجاوبة تماماً مع أحاديثي و تتزحلق معي من منحدر لآخر بطريقة سلسة، و نُعاود التسلق إلى قمّة حديثٍ آخر دون كلل ولا ملل . رنّ هاتفها المحمول ...

- سنأتي حالاً ..

قُلت لها ..

- من المتصل ؟

- ستيف و كريستي ، يريداننا أن نأتي لنذهب ..
- قبل أن نذهب ، أريد أن أهديكِ شيئاً ..
- ... ؟

أخرجتُ السوار من جيب بنطالي ، و وضعته على يد آشلي وسط ترقبها الخجول للموقف ..

- لا أستحق هذا يا جاك ..
- هو لكِ ، اقبليه فقط ، و هذا رقم هاتفي ، قد نلتقي يوماً يا آشلي ..
- سأحفظه بالتأكيد ، و سأتصل يوماً ما بك ..

ذهبنا إلى المركبة بعد سهرة ماتعة غير متوقعة ، وأعادتني كريستي إلى ويستبورن حيث كانت سيارتي ، و قمت بتوديع الجميع رغم أن وداعي كان متركزاً على آشلي ، تلك التي أضافت لسهرتي نكهة لم أتوقع حدوثها أبداً ..

ما معنى أن تُحب بفوضى ؟

هل جرّب أحد العشّاق الحقيقيين أن يتوازنوا ما بين خطٍّ فاصل لحُبّين مختلفين ؟

هنا سيبدو الأمر صعباً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، فالحب بمعناه الحقيقي هو مُحاولة لصُنع قاعدة واحدة تلم شمل المُحب و خليله ، و الحب بمعناه الفوضوي هو مُحاولة لترتيب صُورة متقاطعة تُرضي مزاجية صاحبها المتقلّب .. يقلّب قِطعها كيفما يشاء ..

في الحقيقة ..

أملك في قلبي حُبّاً فوضويّاً حقيقيّاً ! أريد أن أقلّب قاعدتي ما بين آشلي الغائبة و كريستينا الحاضرة ، أريد أن أرتّب الصُّورة التي تُلائم مقاس رغبتي لكل يوم ، كأن أرى وجهاً يجمع زُرقة عيني آشلي و أنفها الصغير ، وشفاه كريستينا البارزة و بشرتها البرونزية ، و أعيش مستمتعاً بهذا الحب الفوضوي الحقيقي . أرغب (بطريقةٍ ما) بأن أجمع حُبهما في معادلة من الدرجة الثانية لأحصل على جوابين صحيحين..

آشلي يا جميلتي ، سأخبركِ بسر قبل ولوجي من باب حب

كريستينا الكبير ، كم أحبكِ كثيراً يا فتاتي الكسول ، و كم أعشق روحكِ المُغامرة يا طفلتي الحبيبة . كيف سيبدو شارع برايندلي من دُونك ؟ و من سيحوك لي الأمان إن عبرتُ من خلاله ؟ وما عدد الوخزات التي ستُصيب قدميّ و قَلبي إن صادفته أمام عينيّ ؟

وداعاً حبيبتي ، وداعاً لصمتكِ الذي قتلني ، وداعاً لأحزاني التي تشبّثت بدروبكِ الباحثة عني ، وداعاً للوعد الذي منحتكِ إياه بأن أبقى معكِ للأبد ، و حبيباً لكِ لحين أموت ، و وداعاً لكل الكنائس التي قَبلت توبتكِ من حُبي و لم تقبل صلاتي لأن تكوني معي ..

صافحتُ حبي الجديد بحرارة ، و ضممته بكل ما أملك من دفءٍ متبقٍّ بأوردتي ، لم أشعر بهذه الطمأنينة مُنذ زمنٍ بعيد ، هي طمأنينة الولوج لباب حُبٍّ يُفتح لأول مرّة . كمن يُعاني من حرارة ظهيرةٍ ساخنة ، و يدخل بشكل مفاجئ إلى زاوية مكيّفة تُوازن كل أحاسيسه المشتتة بسبب سخونة الأيام و قسوتها ..

ما ألذ هذا المدعو بالحُب ، وما أكبر بابه ، أنا الذي أخطو إليه بجديّة أكبر هذه المرّة ، و أقطف من ثماره المنسدلة على أطراف حدائقه الغنّاء . هذا الحب أشبه بجنّة كبيرة ، أُعدّت لكي أنعم بمحاصيلها التي لا تنتظر أي مُستهلكٍ في هذا العالم سواي ..

هذه الزهور البديعة تنتظر رقصتي ، و تلك النحلات مُستعدّة لأن تبني مملكة متكاملة من حبوب لقاحي المنثورة بكل أرجائها..

هذه الجنّة لا تُشبه جنّتي القديمة مع آشلي .

بالسابق ، لم أكن أملك صكوكاً شرعية تخوّلني لبناء أيِّ قطعةٍ بها ، فسُور زواجها قَسَم تلك الجنّة إلى قسمين ، قسمٌ برعاية زوجها ، يُشرف به كيفما يشاء ، و الآخر برعايتي المرتعشة، و لا أُشرف سِوى على بقايا ذلك الرجل ليلاً ، فأنا أخاف النهار برفقتها لكي لا ترانا السماء ، على عكس أندرسون الذي يُمارس

كافة أنشطته معها دون أي يخاف من حرارة الشمس ، ولا من لهيب الألسنة التي تحرق دون اكتراث..

لم أصدق أن جنّة كريستينا بهذا المتّسع الذي يحتويني..

جميع الأشجار ناضجة ، جميع الفواكه محلّلة و جاهزة للأكل، و كل الأراضي قابلة للزراعة و الرّي من قِبلي، حيث لا رماد يجر من خلفه خيبات الماضي ، و لاخريف ليقتلع موسم ربيعي الهادئ .

حبّها أشبه بفكرة زينوب غرام حين اكتشف مولّده الكهربائي لأول مرّة ، إذ أضاءت فكرتها كلَّ مساحات حبي المظلمة ، سواءً تلك المعطوبة من قِبل آشلي أو حتى الجديدة التي لم تُكتشف بعد! سأكون التجربة التي تُعلن نجاح اكتشافك ، وتكونين الفكرة المدوّنة في سماء كل مهتم بأوائل الاكتشافات..

سأزرع القرنفل بكل حدائقنا ، و أعلن بأنكِ موسم حصادي الطامع فيه ..

سأحبكِ و أحبكِ و أحبكِ ..

و ستُحبكِ كل حديقة ، و كل زهرة ليمون نبتت بجوارك..

تناولت أحد دفاتري القديمة و دوّنت تاريخ حزني اليوم، و بدأت بكتابة بعض القصائد في أركان هوامشه ، أعدت النظر لها فوجدتها هي الأخرى تختبئ بعيداً عن الأسطر ، ولاتملك الثقة الكافية لأن تقف فوقه بثبات. مكتوبةٌ بشكلٍ مائل غير مُغرٍ للقراءة ، كأنها معدّة لأن تُقرأ مرةً واحدة فقط، ومن ثم تصبح غير قابلة للاستعمال ..

توالي الأحداث يكدّس الكثير في ذاكرة مفاهيمي ، ونظرتي للعديد من الأمور في تغيرٍ مستمر ، حتى الحب الذي لم أُلقِ له بالاً بأيامي الخوالي ، بدأ بالوُلوج العميق بي ، نظرتي للأنثى لم تَعد عابرة ، و أصبح تفصيلها من ضمن هواياتي المحببة ، كأن أفهم كيف تفكر ، أو حتى كيف ترى الحياة من عينيها، و ما هو تعريفها للحب وما هي أطواره الأكثر لذة لنكهة مزاجها الخاصة ..

آه من النوم ..

و الفراغ الشاسع الساكن به و الذي لا يجعلنا نتذوق النكهة الأخيرة من الحلم ، كم من قبرٍ سيضم أمانينا ؟ وهل سيتمكن دود الأرض من تَحليل كافة أجزائها كما يجب ؟

الحب إجمالاً يُشبه لعبة شدّ الحبل ، يجر آدم شوقه برفق، ويستحث حواء لأن تُشاركه اللعب ، و تبدأ الإثارة فيما بينهما،

كلٌّ يريد إثبات وجوده لتستمر حكاياتهما بالضحكات المتناثرة في تلك الأجواء ..

و بعد حينٍ من الزمن ..

تتساوى قوّة الأشواق ، ليستقر الحبل في منتصف حبهما، ويرضيا بتلك القسمة بينهما ،

لم يكن الحبل جادّاً بيني وبين كريستينا ، كانت تحاول أن تربطه بشيءٍ ما بجسدي ، و لم أشعر بهِ إلا مؤخراً ..

كانت تلك المكالمة بيننا هي الميثاق الذي استمسكَ بعروتي الوثقى ،

و أخذت بكلي إلى قلبها ،

لم يكن الأمر سهلاً ، فبدايتي كانت شبه حمقاء ، و لم أكن قادراً على توزيع مشاعري بالشكل الذي ينبغي أن تظهر به . في ذلك الوقت ، شعرت بأن الخوف قد دبَّ بقلبك ، وصناعتي لذلك الضجيج المدوّي من حولك لم يكن إلا ناتجاً من معادلات تهوري .

عملية جمعي لما بين قوسي مشاعرك تمّت قبل ضربهما، وهذا ما أدّى إلى بعض الفوضى ، و ظهور بعض النتائج عكس حقيقتها ، و على ذلك وُجِد خوفك الذي أسعى جاهداً لأن أزيله من أعماق جذوره ، و أن أجمع حُسن

الرجال في جسدي الذي أحبَّكِ ، و أصبح خيارِكِ الدائم في مشاعرك الرقيقة ..

حُبكِ أصبح شريناً ثالثاً في قلبي .. إذ تتعاطى خلاياه كافة أحاسيسك ذهاباً و إياباً ، و يحمل بين أنابيبهِ كل تلك المشاعر اللذيذة التي تنعش فوضى حواسي ، حبكِ هو القادر على إعادة تهيئتي من جديد ، و هو الذي يأخذني إلى عالمكِ المليء بالألوان و الرذاذ ..

المُقتحِم كما يُعرفه الناس ، هو ذلك السيئ الذي يتجاوز حقوق غيرهِ بغض النظر عن الأهداف المرجوّة من فعلته ..

و الاقتحام بنظري هو الحياة ، خصوصاً ذلك المختبئ خلف الأحاسيس البشرية ..

هل تُدركين ما حجم الاقتحام الذي أقدَمتُ عليه معكِ؟

هذا الاقتحام أشبه بعاصفةٍ هوجاء ضربت ساحلاً لم يتذوق طعمَ فيضان ، ذلك الشُّعور الذي يخلق الفوضى من قلب الأمان، من يصدّق أن هذا البحر الهادئ قام بكل ذلك؟

ما زلت أشعر بثِقل كاهلي من هذا الحب ، كيف لقلبي المرهف أن يجمع ما بين حُبين مختلفين بآنٍ واحد ؟

يقول شوبنهاور : «كل مآسينا تقريباً تنبع من صلاتنا بالآخرين» ..

أنا الذي أصارع اليأس و المآسي جرّاء معرفتي بكما، وأعاني من الفوضى التي بلّلت كل رداء في خزينة حياتي. كان لابد لي من حقيقة سامية ترتقي فوق كل كذبة ، كالشمس مثلاً ، فهي تجفّف كل بللٍ بلا مُقابل و تسعى لأن تُنير كل زوايا هذا الكون الفسيح ، و ترحل باتزان عظيم لتتّزن أجسادنا بدورة حياتها ..

كان البحر بقمّة سكونه ، شمس الخميس تشعر بالنشاط أيضاً ، فهي لاتسبّب أيّ ثورةٍ في المياه الصامتة ، وحرارتها تحترم وجودي ولا تُزعج حبّات العرق النائمة بدفء وريدي.

سربٌ من الساردين يتلاعب أمامي و يُنعش صمت الأفق..

أمسكت حجراً وحيداً لأحاول ضمّه لذلك السِّرب ، وحدته أشعرتني بالألم كالذي أشعر به الآن . الجميع هرب منه، و صنعوا له فجوة ليُكمل وحدته بأجواءٍ عميقة أكثر حزناً، لماذا لا يقدّر الساردين وحدة الحجر ؟ أشعر بأني كذلك الحجر، إذ أمسكتني الأقدار و رمتني في بحار الحياة، وتفادى الجميع وجودي فانتقلت من وحدتي بالديار إلى وحدةٍ أشد وطئاً و في ديارٍ أخرى برفقة الظلام ..

أهل المدن الساحلية لا يقدّسون الساعات الأولى من الصباح مع البحر ..

إنها تصنع الملايين من الأسئلة التي تبحث عن الإجابات الممتدة على طول المدى ، حركة ذلك السلطعون بالاتجاه الأيمن

لابد من تفسيرٍ لها ، لماذا لم يسير للاتجاه الأيسر مثلاً ؟ هو يملك العديد من الخيارات المُتاحة أمامه ليختار دربه القادم، و هو أيضاً بالخط الفاصل ما بين بيئتين مختلفتين تماماً ، حيث بإمكانه أن يتنفس ببيئةٍ لا تحتاج لخياشيمه ، و بإمكانه أن يجعل أنفاسه باتصالٍ مباشر مع ذرات الأكسجين ، كم أحسد هذا المخلوق الذي ينال كل هذه الفرص و بكل أحواله يتنفس و يعيش ! أنا الباكي على هوامش البحر ، كم أحتاج من الورق لكي أكتب بحبرهِ ؟

حنين الماضي يشتعل مع كُل قبلة أمرّرها لشفتي كريستينا، كم أفتقد لحدبة شفاه آشلي التي تحتويني مع كل قُبلة و همسة. و رغبة الحاضر تجعلني متشبثاً بصدر عشيقتي الحالية ، لأزرع بين نهديها قُبلات حُبٍّ تدفع ضريبتي لدخول جنتها من دون حِساب ..

كريستينا ، آشلي ، أحبكما كثيراً ، و لا أعلم ماهية العملية الرياضية المناسبة لأقسمَ قلبي بلا باقٍ يميل لإحداكما ، أفتقد للعلَّة الأولى التي تقرّبني منكما بآنٍ واحد ..

حين يشتعل فؤاد الرجل بامرأتين ..

يلعب الشيطان وسيطاً جيداً في بث وتيرة الحب بأفضل شكلٍ ممكن ، و يقوي العلاقات في معصمي رجلٍ يُمسك فتاتين بأصابع الحب ، ليضع كل أنثى على كفٍّ و يُوهمها بالسقوط في بلاد أليس وعجائبها ..

ربما لم ينتبه تشارلز إلى أن روايته افتقرت إلى شيطانٍ صنع كل هذه العجائب في حفرة الأرنب التي سقطت بها أليس ، هذا الشيطان الذي يعرفه الرجال الأوغاد جيداً، بمن فيهم أنا..

لم يكن جان روسو مُخطئاً حين أشار إلى أن الإنسان خيِّر بطبعه الفطري ..

وأنَّ المشوّه الوحيد لذلك الخير هو مجتمعه .. !

هو ذات الإنسان الذي بنى حضارته و ارتقى بها في هذا الكون .

هذا الإنسان بداخلي بدأ بالذبول شيئاً فشيئاً بسبب حضارة أنثيين استعمرتا تاريخي العاطفي ..

وبنتا به القلاع والحصون برسم هندسي يستطيع مُقاومة كل عوامل التعرية المصادفة لها في حيًاتي ..

في هذه السنة ..

سيشهد آخر مارس حفلة زواجي من كريستينا ..

و سيحتفل معي بتتويجها ملكةً على بقايا عمري الساعي إلى إنجاب طفلٍ جديد بمساعدة قلبها الذي نبض بي و أرادني جاراً له طَوال العُمر ..

ولعلّ الجميل في هذه الحياة ..

هو أننا كبشر ، بإمكاننا أن نصنع حيوات جديدة من حياةٍ بائسة سكنت روحاً حزينة ، والأكثر جمالاً هو أن العامل الوراثي لا يحترم هذا اليأس ولا يقوم بنقله إلى الأجيال القادمة كيأس وراثي ، فالروح الجديدة تظهر بيضاء بلا شوائب مصدرها الحزين ..

فالرّبُّ عادلٌ بقسمته ..

ولا يُحمّل روحاً جديدة وزرَ أصلها مهما كان مُنيراً / باهتاً..

(III)

Ashley 2000 آشلي ٢٠٠٠ م

مساء اليوم سيفتتح موعدي الأول مع جاك في مترلي، شابٌّ وسيم دخل قلبي من أضيق باب لفتاةٍ تكره زوجها بعد أن أُجبرت على الموافقة عليه من قِبل والدتها .

كان أندرسون هو المتمكن الوحيد من إدارة شركتنا التي تركها لنا والدنا قبل مماته . ولذلك ، كان عليَّ لزاماً أن أُكمل فراغه العاطفي الذي تعرّض لهزّة عنيفة حين طلّق زوجته التي أنجب منها أربع فتيات و ذكراً واحداً .

لم تكن أمي مُغرية بالنسبة لذلك الرجل المُقبل على الخمسين من العُمر ، بل كُنت ضحيته العشرينية التي يود ترويضها كما يُروض الخيّال فرسه . و قد تمكن من ذلك حين تقدّم لخطبتي في صيفٍ حار في عام ٩٨ م . و استطاع أن ينال قُبلتي وتوقيعي اللذين يُؤهلانه لأن يكون شريك فراشي و حياتي بعد ضغطٍ شديد تعرضت له من قِبل والدتي سارا ..

فهي دائماً ما تُجمّل هذا الرجل بعيني ، و تُرغّبني بالتقرّب

منه كلما زارنا في المترل ليُخبر والدتي عن جديد الشركة برفقة كوبي قهوتهما الروتينية صباح كل سبتٍ جديد .

هي تُدرك تماماً أن هذا الرجل الحاصل على الدكتوراه في إدارة الأعمال سيكون قادراً على إحياء الشركة كلّما اقتربت من السقوط ، و أنه المنقذ الوحيد لها في حال تعرضها للخطر في سوق التجارة البريطاني ، فقد تمكن من تجاوز أشدِّ أزماتها الحادة و نهض بها من جديد. في المقابل ، لم تمكّنه شهادته من إدارة أحوال مترله و زوجته نيكول ، و فضّل إنهاء علاقتهما الطويلة..

همس بدفء ..

- سأشتاقكِ..

- هل تشتاقني حقّاً ؟

اقترب من أذني أكثر ..

- و مُنذ متى لم تشعري بشوقي الذي لا ينجرف إلا بين عينيكِ ؟

- ألم تشتق لنيكول ؟

نهض من مكانه ، و ذهب ليحزم أمتعته لسفرٍ قد يطول إلى بلجيكا ..

نظر إلى المرآة وهو يضع ربطة عُنقه وقال لي ..

- عنيدةٌ أنتِ .. لكني أحب هذا العناد العشريني يا صغيرتي..

خرج من المترل ..

و أخرجتُ هاتفي من دُرجي الصغير ..

وقُمت بكتابة رسالة إلى من سرق فؤادي بأن الحاجز الذي كان بيني و بينه قد زال ، و أن كل الأبواب مشرّعة لقُدومه..

..... تمَّ الإرسال .....

- أحبكِ ..
- أحبكَ أكثر جاكي ..
- حضنٌ لذيذ كهذا لن يُشعرني ببرودة الأجواء بأيِّ فصلٍ كان..

قبّلتُ ظهرها المُقابل لشفتيّ .. و حضنتها بشكلٍ أقوى بعدما أدارت رقبتها قليلاً للخلف..

- لم يعد هنالك ما أحتاجه سواك جاكي .. هل تفهم ما أقوله ؟
- كريستي ، كلّ ما أفهمه الآن هو أننا نستمتع بشهر عسلنا فقط ..
- هل تعجبك أجواء باريس ؟
- لا ..
- لم ؟
- لأني أستمتعُ بأجوائكِ أنتِ..
- ..... حقّاً ؟

- .... بل أستمتع بكل خليّة قُمتُ بشم عطرها للتوّ..

- تلك الخلايا لا تُنادي سواك ..

- ولا تبحث حواسي سوى عنها فقط ...

لم أشعر بمثل هذا الحب و الاحتواء قبل الآن . لم يكن الأمر مُريحاً بالسابق حين يتعلق بالخروج مع عاهرة تذوقت طعم أكثر من رجل . الحب يجعل الرجل ينظر للأنثى بشكلٍ يحترم ما بداخلها من رقّة و إحساس ، و الزواج يُشعرك بأنها أنثاك فقط ولا يُمكن أن تكون لسواك إلا إذا كسرت رباطه المقدّس في كل الأديان قاطبةً ..

- أشمُّ فيكَ رائحة أمي و أبي و أخي يا حبيبي ... رغم أني لم أشم روائحهم قط !

- آه .. لقد أتيتِ إلى هذه الدنيا دُون هؤلاء لتكوني لي فقط..

توسّدت صدري و همست إليّ وهي تنظر إلى شمعةٍ مجاورة لنا ..

- قد يغفر الرب خطأهما لأنهما أنجباني و رحلا دون رؤيتهما..

- و هل الرب يغفر لمن يترك جميلة مثلك و هما على قيد

الحياة ؟

- نعم .. فلولاهما لما كُنت على صدرك الآن ..

- و طفولتكِ برفقة من وجدتكِ بالمستشفى دونهما .. ألا يبدو الأمر مزعـــ .... !

أغلقت شفتيّ بيديها ، وقبّلتها بحرقة ..

- لا أعلم شيئاً سوى أنكَ مستقبلي و حاضري ..

- ولا أعلم سوى أنكِ الأنثى التي التقطتني من متاهة هذه الحياة ، ووضعتني في المكان الذي يجدر أن أكون به منذ زمنٍ بعيد ..

- الله يسمعنا جيداً ، و سيزرع المزيد من الحب بالتأكيد..

أطفأت الشمعة بأنفاسها ..

و أطفأت معها يوماً حافلاً بالمتعة ، و الشقاوة ، و أخيراً بالحب ..

و تتوالى الأيام ..

و تتوالى معها الفصول القاسية على قلبي المُفعم بالألم ..

لماذا تستجيب حواسنا لفلسفة نصف الأكواب و تترك الكأس الممتلئ بالماء ؟

لماذا نلتفت بجديّة إلى كل الأمور التي تُعاني و نترك كلَّ ما هو مُستقر من حولنا ؟

لأكن جادّاً هذه المرة ..

حاولت مراراً أن أكون رقماً كونيّاً ثابتاً في فراغك، وأن أنتقل به من نُقطةٍ لأخرى دون أن أُعاني من حاجز يرطمني بكِ . حاولت أن أكون كضوءٍ ينسل من مكانٍ لآخر دون أن يتوقف بمحطات عُبورٍ تختبر صبري المريض..

قرّرت الخروج لقَبر والدتي ..

فأنا بحاجة إلى شيءٍ يسمعني فقط دُون أن يُقاطعني ..

يقبَع قبرها تحت شجرةٍ مُزهرة على الدوام ، هو ينبوع أمي الذي لا ينقطع ، و عطر جسدها الذي لا يتعفّن و إن بدا كذلك للجميع .. جلستُ بجواره هادئاً ساكناً ...

قالت لي ذات يوم :

« احذر من كلِّ جميل يا بُني ، فهذه الأشياء تأخذك إلى أقصى عُمقٍ ممكن ، ومن ثمَّ تتركك بغتة ، لتعيش عُمراً بالتّيه والظلام ، و قد لا تستيقظ بعد ذلك أبداً»

هَل تعلمين يا أمي بأني تِهت بسبب تلك الأشياء الجميلة؟ هل يُدرك جسدكِ الميّت أيّ عطبٍ قد حلّ بي ؟ هل تذكرين أكتوبر يا أمّاه ؟

ذلك الشهر الذي بلغتُ حلمي به ..

أصبحت رجلاً حقّاً بكامل إفرازاتي و ملامحي ..

ودّعت الطفولة و براءتها و دخلت إلى أول ساعة من الرجولة ، استقبلتها ببكاءٍ شديد في الصباح الباكر ، تلك الأنثى التي عاشرتها بالحلم كانت كفيلة بأن أصرخ باسمكِ..

كنتُ أراها و الشيطان بآنٍ واحد ، فتسببت هي ببلوغي وتسبب هو بإغوائي ، أمسكتكِ حينها يا أمي مع يديكِ وأخذتكِ إلى غُرفةٍ فارغة و أحكمت إغلاقها بالمفتاح وقلت لكِ:

- أحتاج بأن أذهب إلى الطبيب ، هنالك خللٌ ما لا أستطيع الإفصاح عنه .
- ما بكَ يا جاكي ؟

- شيءٌ لزج قد باغتني منذ أن استيقظت ، رعشة حُضوره مُرعبة و غير معتادة ..

ابتسمت بعمق و طلبت مني أن أروي كامل الحكاية .. بالنهاية ، قالت بدفء الأمهات ..

- يا ولدي اليوم أصبحت رجلاً ..

لم أكن أعلم يا أماه أن المرأة هي من تجعل الصبي رجلاً ، السر في الأنثى إذاً ! قد أحتاج إلى بعض الوقت لأفك ألغازها عن بُعد ، فإن كانت الأحلام تصنع ذلك ، فماذا لو اقتربت مني فعلاً ؟

مُنذ تلك الساعة ، أدركت أن الأنثى خطرٌ حقيقيٌّ على الرجل ، تصنع الطُّعم ليقع بالفخ ، و حينها سيضطر آسفاً إلى أن يعيش أجواءه حتى تفك أسره ..

إلى جنّة الخُلد يا أمي ..

إلى جنّة الخلد يا حبيبتي ..

قال الكتاب المقدس :

«يطلب اليهود علامة ليقتنعوا و اليونانيون يسعون خلف الحكمة»

لستُ يهوديّاً لأطلب علامةً تُقنعني بحُبكِ يا كريستينا ، ولكني تمنيتُ أن أكون كذلك لكي يكون طلبي فطريّاً أكثر من كونه رغبة ، كآينشتاين ، النموذج الأصلي لليهودي المشرّد والذي وجدَ نفسه خارج وطنه ، و اضطرّ إلى ارتداء المسيحية والجنسية الألمانية في سبيل الحصول على العلم الهارب بين أزقّة برلين الباردة ..

لم أكن مثله يا عزيزتي ، فهو كان يبحث عن الفيزياء، وأنا أبحث عن حُبٍّ لم يكتمل ، عن مشاعر لا تتّزن كلّما هممتُ بالسير على طريقها ..

قد أحتاج إلى فصلٍ بوذي لأتمكن من تخليص روحي من المعاناة كما يفعلون ..

فالبوذية نشأت من الحُزن ، من الألم ، فقد كان بوذا، أو سيد هارتا غوتاما زاهداً ، فبالرغم من توفّر كل ما يدعوهُ للحياة السعيدة ، إلا أنّه اختار الحزن ، لأنه يعلم أن الموت لا

يترك أصحاب الأموال الثرية ، و لا يُمكنه أن يشتري روحاً جديدة في حال ذبول روحه في هذه الحياة..

فهو من يرى أن أيّ مخلوق سيكون معرضاً للمعاناة والألم..

هذا الحكيم أجاد الضرب على وتري الحسّاس ، و أكّد لي أن المعاناة مخلّدة برفقة كل روح ، فنحن نعاني المرَّ حين نفقد ميتاً ، أو نتألم من مرضٍ ما ، و حتّى حين نُطعن من قِبل من توقعناهم بلا سكاكين.

أحببتُ كريستينا ، تزوجتها ، و عشنا لأكثر من عامين معاً، و لكني لا أجد المتعة التي وجدتها برفقة آشلي ، لم ألمح حُبّاً بالإمكان تبنّيه حتى يُصبح أسطوريّاً ..

حاولت مراراً و تكراراً أن أتقمّص زيّ الحب كما ينبغي..

فقد تداولَتْ شفاهنا عذب الكلام ، و انتشينا معاً حتى وصلنا إلى السماء ، و كنتُ أنيقاً بما يكفي لإغراء أيّ فتاة بوسامتي، و خُضرة عينيّ ، و عضلاتي المفتولة التي تجذب أنظارهنّ من كل صوب ..

لكن الشُّعور بالنقص ما زال يهبُّ في أجوائي ، لم أجد المفتاح الذي توقعت وجوده في مُحيطات كريستي، ما زلتُ

بقلبٍ مُؤصد لم يفتحه سوى فعلٍ ماضٍ هبَّ مع أفعال الحاضر و المستقبل ..

فلسفتي للحياة مُختلفة جدّاً ..

فأنا أرى أن الأصل بها هو الذبول ، و كل شيء معرّض لتلك المحنة العصيبة ..

فبداية الأشياء لا تُعطي انطباعاً جادّاً حول الآتي ، لأننا نُمارس حاسة التذوق لأول مرّة عند كلّ حدثٍ جديد، وتلك الحاسة تُشغلنا عن تحسّس طعم الحقيقة المختبئة حول تلك النكهة..

و معَ تسارع حركة عقارب الساعة ..

سيُؤمن الإنسان بأنه مجرّد وردة ، بدأت من بذرة أقامت ثورتها في التربة ، و استمرّت بالنضوج و الاخضرار بشكلٍ جميل، و سيعلم حين يصل لثمرتهِ بأنه سيضمر ذات يَوم ، وسيذبل ، و سيُصبح أصفر شاحباً بعد كلّ جُهده المبذول أثناء الصعود ..

سيُدرك أن وصوله إلى القمّة ، إلى النشوة ، هو المؤشر الأول لامتطائه دربَ الذبول ..

و لهذا يكون الفقراء هم الأطول عمراً دائماً ، و لهذا سيُدخلهم الرّب الجنة أولاً ، لأنهم لم يصلوا إلى تلك النشوة

التي وصلنا لها ، و ماتوا بحسرة رغباتهم التي كانت تشتهي تذوقها ، و مضمض الموت في أعينهم قبلَ أن يتحسّسوا حقيقتها بأيديهم..

و لهذا ، أرى ذبولي بشكلٍ واضح هذه المرّة مع كريستينا، فزواجنا أوصلنا سريعاً إلى قمّة نشوتنا ، و هذا ما أوصلنا بشكلٍ أسرع إلى المرحلة الأخيرة من حُبنا .

وما زاد من تسارع الأمر ، هو حُب آشلي الباقي في قلبي، فقد كان محفّزاً بما يكفي لإتمام معادلة كيميائية تنتهي بتبخير كل إحساس في جسدي .

فأنا أفكّر جديّاً بالانفصال عنها .. !

(IV)

أكتوبر ٢٠٠٤ م .. السابعة و النصف صباحاً

« حبيبي جاكي ..

سأذهب إلى جنازة والدة صديقتي ، سأنتهي من هذا وأعود للمترل ،

أحبك ،،

كريستي »

رسالة معلّقة من كريستينا على حائط حمّام السباحة..

هي تَعلم بأني أسترخي دائماً بالماء الدافئ في عطلة نهاية الأسبوع ، و لهذا وضعت هذه الرسالة لأقرأها مباشرةً بعد استيقاظي ، لكن الأمور لا تسير على ما يُرام، فهنالك فقدٌ قد حلّ بالكون ، ووجودي هنا بحالة استرخاء يبدو أحمق إلى حدٍّ كبير ! و لهذا سألتحق بكريستينا لأكون بجوارها في تشييع تلك الروح التي توارت عن أعيننا و إن أبقَت لنا جسداً معطوباً لا

يكترث له سوى الصمت.

و بعد أقل من ستين دقيقة ..

- كريستي ، أين أنتِ ؟
- في المقبرة ، ستجدها بالحيّ الثاني من شارع برايندلي ، التقاطع الثاني بجوار المعهد الإداري ..
- حسناً .. سأكون هنالك بعد رُبع ساعة على الأقل..
- سأنتظرك ..

السماء ملبّدة بالغيوم ، وأظنّها جاهزة لكي تُمطر بعد سويعاتٍ قليلة ..

جميع الشوارع هادئة ، وقليلٌ من الناس من تراهم الآن في هذا التوقيت ..

تلك العجوز الميتة قد رحلت بأجواءٍ جميلة ، وكم أغبطها على ذلك ..

فالغيم سيحلّق مع روحها ، وسيتشبث المطر بنُورها ..

رحلت بهدوء وخلسة غير ملموسة ..

وصلتُ إلى المقبرة ..

والتفتت عيني إلى أول حشدٍ يقبع هنالك ، تسارعتُ بخطواتي حتى وصلت إلى هدفي ، حيث النحيب ، والدموع، والأوجاع في رحيل هذه العجوز النائمة أمامي ، أقرأ بوجوه الجميع الحزن والخوف ، فهي قد سبقتهم بهذه الخطوة، و هم يعلمون بأنهم سيرافقونها في الخطوة التالية إذعاناً للطبيعة وحُكم الله فيها ..

بحثت عن كريستينا و لم أجدها !
هنالك جماعةٌ أخرى في هذه المقبرة الخضراء ،

وفي تلك البقعة ، لمحت كريستينا وتسريحة شعرها المنسدلة على ظهرها ، أمسكت بيدها ونظرنا معاً إلى التابوت المغلق وكأننا نُلقي نظرة إلى مصيرنا المحتوم . يبدو أنهم على وشك إنهاء مراسم العزاء ، لم يكن هنالك حزنٌ عارم كما رأيته بالجماعة السابقة ..

أتلفّتُ بالوجوه ، وأتأمل في تفاصيلها ، ولغة أجسادها. كيف لهذا الكائن البشري أن يعبّر عن حُزنه بأفضل شكلٍ ممكن؟ ومع تعدد الإجابات وجدت أنّ بعضهم ينطقون

بأعينهم، والآخرين بدموعهم ، وهنالك من يُمارس طقوس الصمت المُطبق وكأنه يحشو قلبه ببارود الأحزان، وحين يجد فراغاً جيداً سيقوم بإطلاقها دون تدبيرٍ سابق..

سقطت عيناي بعيني آشلي ! ما هذه المفاجأة التي لم أحسب لها أيَّ حساب ؟ تركتُ كل ما حولي وجلستُ أترقبها. لا أصدق هذا حتى الآن ؟ كيف للأقدار أن تجمعنا في مراسم عزاء ؟ ولماذا تبكي بذات الطريقة التي رأيتُها بها وهي تتّجه إلى القسيس في ذلك اليوم الممطر ؟ الملايين من الأسئلة المطروحة في ذهني ، ولا يوجد سوى دقائق معدودة لتنتهي مراسم عزاء هذه الميتة ، إنها تبكي وفي حضنها طفلٌ وسيم . من هذا ؟ وما علاقتها بهذا العزاء ؟

- ما بكَ تنظر بكل هذا الذهول إلى الجانب الآخر ؟
- لا شيء كريستي .. فقط أتخيّل صعود هذه الميّتة إلى الرب.. ستكون سعيدة بلقائه حتماً ..
- .....
- من هي صديقتكِ التي فقدت والدتها ؟
- آشلي تايلر ، تلك الشقراء بالجهة المقابلة .. ألا تذكرها؟

هي التي رافقتنا إلى الملاهي مع ستيف قبل عدّة سنوات .. أتذكر ؟

– آه .. تذكرتها .. يبدو أنها تُشبه أمها كثيراً ..

– ربما .. لنذهب و نقم بتعزيتها الآن ..

– لا لا ....

– ..... !!

– أقصد .. لنذهب ..

سحقاً لهذه اللحظة القاتلة ، أنا الذي تركت آشلي آخر مرّة بقُبلة ، أعود لها بعد سنواتٍ عجاف لأعزّيها بوفاة والدتها؟ كيف سيكون موقفها وأنا أمشي بجوار صديقتها ؟ ما هي ردّة فعلها لو علمت بأن صديقتها الحميمة أصبحت زوجتي؟ لايُهم، فهي في نهاية الأمر قد أنجبت ، ولا أظنها ستكترث لهذه السفاسف القديمة .

وبينما نشق الطريق لهنالك .. وصلنا بجوارها .. وكانت غارقة في دموعٍ غزيرة ... حضنتها كريستينا ..

– لا تبكي يا حبيبتي ، لقد ارتاحت الآن ، وهي تنتظرنا بالجنّة الآن ..

– .....

رفعتْ رأسها عن كتف كريستينا ، ونظرت إليَّ بذهولٍ حاد.. وصرخت ..

- جاااااكي ..... !

ارتمت على صدري وسط ذهولي اللامعقول ..

وذهول كريستينا والحاضرين . قامت بتقبيل شفتيَّ بقوة وأخفت رأسها على كتفي .. وقالت بصوتٍ منخفض ولغةٍ ركيكة تتخللها الدموع ..

- آآآه يا جاكي .. أين أنتَ طوال هذه السنين ؟ ألم تشتق إليّ؟ ألم تشتق لطفلك هيركلس ؟ ألم تشتق لأيِّ شيء بيننا؟

- طفلي ؟

مسحت إحدى دمعاتها .. ونظرت إلي و قالت ..

- طفلك ماي ..... !!

قمتُ بإغلاق فمها مباشرةً وكأني أحاول تهدئتها أمام كريستينا ، ومرّرتُ لها بهمسٍ خافتٍ:

- أراكِ اليوم بالعاشرة مساءً .. في حديقة برايندلي.. اصمتي الآنَ أرجوكِ .. سأشرح كل شيء لاحقاً ..

- ..... ؟!

مسحتُ بقية دموعها بأطراف أناملي ، وداخلي يعتصر من كثرة الأسئلة ، هل يُعقل بأن ذلك الطفل هو طفلي ؟ أم أنه طفل أندرسون ؟ وما بها متلهفةً إليَّ بهذا الشكل ؟ هل ذهبت ذلك اليوم إلى القسيس لتشتكي زوجها ؟ ولماذا قبّلتني بهذا الشكل على مرأى الجميع ؟ ألا تخاف من أندرسون ؟ ألا تخاف من أن يُخبره أحدٌ ما بتلك القبلة ؟

قُلتُ لها بصوتٍ عالٍ .. لتسمعني كريستينا ..

- ستكونين بخير الآن يا آشلي .. اهدئي فقط .. فوالدتك في حفظ الرب ..وهذا هاتفي .. أنا في الخدمة دائماً..

- لا تقلق .. سأكون بخير ..

أمسكت كريستينا يدي .. وآشلي ترقب الموقف .. وقالت لها بسرعة :

- نراكِ على خير يا صديقتي .. انتبهي لنفسكِ جيداً .. فلدينا ما نود إنجازه ..

- وأنتِ كذلك .. شكراً كرس .. شكراً جاكي ..

تولّت كريستي القيادة عني ، وتركت مركبتها برفقة صديقتها إيميلي ..

صمتٌ مُطبق يحيط بالسيّارة ، لا أحد يجرؤ على بدء مُحادثة بعد مراسم العزاء ، ومراسم القُبلة أمام ميت، قُلت مازحاً ..

– تحدّثي ، فأطراف شفتيكِ قد ابيضّت من الصمت ..

– .....

– ..... ، كريستي ما بكِ ؟

أخرجتْ من جيب بنطالها الأسود سيجارة ، وقامت بإشعالها .. قالت بصوتٍ مخنوق ..

– كانت هي إذاً يا جاك ..

– ..... !

– آشلي ، مراسلاتكما البريدية ، وهمسات الحب اللعينة في درجك ، كل تلك الرسائل كُتبت لها، لكنها تزوجت وتركتك وحيداً ، وقُمت بتمريرها لي، كانت كذبة إذاً..

– الأمر ليس كذلك صدقيني ..

رفعت صوتها بشدّة .. وبدأت دموعها بالانهمار ..

– اصمتْ، لقد تعرّفت عليها بالملهى. أخبرني ستيف بكل شيءٍ بينكما ، أنسيت بأنه صديقي ؟ قال لي إن آشلي واقعة في غرام رجلٍ ما ، وكنت آخر رجلٍ متوقع من بين

كل الرجال ..

- لماذا تؤمنين بأنها هي ؟ هنالك الملايين من الفتيات في مانشستر بأسماء آشلي ..

قامت بضرب المقود .. وبدأت بإدخال الكلمات القذرة في حديثها ..

- لكن تلك القبلة الساخنة تُشير بكل حواسها بأنها هي ، أتراني حمقاء إلى هذا الحد ؟ ألهذه الدرجة تقوم باستغفالي يا جاكي ؟ هل كل الدهشة التي صنعها الناس كاذبة وقُبلتك هي الصادقة ؟ الجميع ظنُّوا بأنك زوجها أيها الحقير ..

بدأت أعصابي بالتشنّج والخروج عن مسارها ، وبدأت هي بزيادة سرعة المركبة ..

- تبّاً لكِ ، لا تحدثيني بهذه اللغة البريئة ، تتكلمين وكأنك لستِ على علاقة غرامية سابقة مع ستيف، أنسيتِ أبريل الكاذب يا سافلة ؟ هل نسيتِ بأني قد دعوتكِ إلى الملاهي وقمتِ بجلب خليل روحكِ رغم دعوتي الخاصة لكِ ؟ أنسيتِ بأنكِ قمتِ بتركي مع آشلي وذهبتِ للعب معه طَوال الوقتِ وكأنه هو صاحب الدعوة ؟

أصبحت تبكي بشكلٍ هستيري ومُخيف ، وقامت بزيادة السرعة بشكلٍ جنوني ..

- خفّفي من السرعة أيتها الحمقاء .. سحقاً الإشارة المرورية... !

- .....

صرختُ بشدّة ..

- توقفي ..... لا .....

بعد عشر ساعات من الحادث :

استيقظت ..

واستيقظت معي كلُّ حواسي ، شعرتُ بألمٍ فظيع في يدي، نظرتُ إلى الجانب الآخر لأجد مريضاً بجواريِ .. قال بسعادة..

- شكراً للرب .. لقد استيقظت سريعاً ..

- أشكرك يا صديقي ..

أتذكر جيداً الحادث الذي قامت به كريستينا ، كانت تسير بسرعة جنونية وارتطمنا بمركبة من الجانب الذي كانت تقود به، أين هي الآن ؟ ناديتُ بصوتٍ عالٍ ..

- هل من أحدٍ هنا ؟

- هل من طبيبٍ بالجوار ؟

أتت إحدى الممرضات بشكلٍ سريع ..

- ما بك ؟ هل تشعر بألمٍ ما ؟

- لا .. الأمور تسير على ما يُرام .. لكني أبحث عن زوجتي.. أين هي ؟

- كريستينا .. ؟

- نعم ..

- .....

- أين هي ؟؟

- بخير لا تقلق ، هي بغرفةٍ أخرى الآن ..

طرق أحدهم الباب ..

ونظر مستقصياً للمكان .. إنه ستيف .. !

- مرحباً جاكي ..

- أهلاً بك يا صديقي .. اجلس اجلس ..

- ماذا حصل ؟ أخبرني ؟

- حدث سوء تفاهم بيني وبينها ، وصار الحادث ..

- هل أنت مجنون ؟ ألم تستطع تأجيل النقاش حتى الوصول للمنزل ؟

- لا تزدني ألماً أرجوك ، لقد حصل ما حصل ، وهي من كانت تقود المركبة ..

- ادع لها جاكي .. إنها تُجري عملية في رئتها المثقوبة.. وقد تموت ..

قُلت له بدهشة وخوف ..

- ماذا تقول ؟ ماذا حصل لها ؟
- لقد تمزقت رئتها اليمنى ، وأصيبت في عمودها الفقري، لقد كانت الضربة موجعة يا جاك ، ليس سهلاً أن تقطع إشارة مرور في مانشستر يا صديقي..

شرعتُ ببكاءٍ تذعن له القلوب..

- هل ستموت حقّاً ؟ هل ستموت ؟
- الرب يعلم ما إذا كانت ستعيش أو ستموت جاكي..
- .....
- لقد عاشت حياة صعبة ، ووُلدت مجهولة الهوية ، بلا أب ولا أم ، وتعايشت مع طفولةٍ مليئة بالحرمان، مرضت بالسرطان وتجاوزته بعد عدّة جولات مؤلمة مع الأدوية الكيميائية ، والآن ، هي تعيش برئة واحدة فقط ، ورئة أخرى مثقوبة تنتظر رقعها لتعيش ..
- .....
- إنها فتاة طيبة ، ويبدو أن الرب يُحب الطيبين ويأخذهم سريعاً إليه ، اليوم رحلت سارا ، وأخاف أن تُرافقها كريستينا إلى السماء ..
- اصمت يا ستيف .. أنا أرجوك ..

- أتَعلم .. أحسدكَ جدّاً لأنها اختارتك زوجاً لها ، لقد حاولت التودّد لها لسنين طويلة وكل محاولاتي باءت بالفشل ، لأنها لا تراني سوى صديق . كانت تحدّثني عنكَ كثيراً ، وعن دهائك الشديد ، لم تنظر يوماً ما إلى الوسامة بقدر ما كانت تبحث عن ذلك اللعين المدعو بالدهاء ..

- وما هو المؤشر الذي يدل على دهائي ؟

قام بحك رأسه ، ونظر إلى النافذة المجاورة ..

- تقول بأنها تفهم لغة عينيكَ دون أن تتحدث ، هه ، لغة أنثوية كاذبة لتمرّر إعجابها إليك بحجج واهية ، كذلك هنّ النساء دائماً ، يُجدن الكذب بواقعية دُون أن يتركن وراء حديثهنّ أيَّ أثرٍ كاذب لنُحاول محوه بطريقةٍ أو بأخرى ..

طلبت منه الذهاب لرؤيتها ، لكنه قال بأن الأطباء يمنعون الزيارة بالوقت الراهن ، وأنها ستقوم بإجراء العملية الجراحية بعد ساعتين من هذه اللحظة .. رحل ستيف عن الغرفة وقال بأنه قد يعود من جديد في حال مكوثي بها ..

ما أبشع الواقع وما آلت إليه أحوالي ، سأكتب حزني هذه الليلة وحدي ، لا أبغي صديقاً ، ولا رفيقاً ، ولا أنتِ يا حبيبتي، سأكتبه اليوم برفقة ذكرياتٍ قلّصت أفق أحلامي ، وحُبٍّ رحل قبل أوانه ، أريد الكتابة بماء المطر ، وبحبر القلم : أنا لستُ بخيرٍ أبداً ..

كلّ أمرٍ يرتبط بي سيُصاب بلعنة النحس والقهر . كانت آشلي بخير ، ولكنها صارعت الكثير من المشكلات منذ معرفتها لي . وكريستينا كذلك ، فهي قد شُفيت من مرضها حين التقينا في المستشفى لأول مرّة ، وقامت بكسب قضية الاعتداء عليّ وزجّت بكل متورّط بالسجن ، وأنا أقوم بزجّها اليوم في حياةٍ فاصلة ، لا يُدرك معالمها أيُّ طبيبٍ في العالم ..

هي نائمةٌ الآن ، لكنها لن تستيقظ بقُبلة كما أفعل معها كل صباح ، لن تتحرك بانزعاج لذيذ حين أقوم بعضّها إن تأخرت عن موعد استحمامها اليومي ، لن تروي أحلامها الجميلة على مسامعي التوّاقة لكلماتها ، لن تكذب برواياتها وحكاياتها الشيّقة قبل النوم ، ولن ترتدي قميصها الذي يُبرز كتفها الصغير . فهي تلبس قميصاً قد امتلأ بالدماء وهي من ألبسني الكثير من الملابس الزاهية المرشوشة بأثمن العطور ..

أمسكت هاتفي المحمول ، واتصلت على آشلي بعدما

تعرّفت على رقمها من خلال رسالتها ..

- آشلي ..

- جاكي ما بك ؟

- أنا بخير لا تقلقي ..

- انتظرتكَ بالحديقة لأكثر من ساعتين و لم تأتِ ، هل أنتَ بخير حقّاً ؟

- أنا في المستشفى المجاور لها ، تعالي وسأخبركِ بكل شيء..

- ماذا ؟؟ أنا قادمةٌ الآن ..

يا تُرى من أيِّ حكايةٍ سأبدأ الحديث معها ؟ وكيف سأنطق ونصف قلبي يتألم من ثقبٍ حلَّ برئةٍ ونصفٌ آخر سيأتي الآن برئةٍ جديدة ؟

ما أصعب الحديث في أحوالٍ مُزرية كالتي أمرُّ بها ، لماذا تسير الأمور بهذه الصورة المعقدة ؟

القصّة بدأت بريشةٍ حمراء ، تُسمّى الحب ، كتبتُ بحبرها ما تيسّر لي من مشاعر ، شخبطت قليلاً على حائطي آشلي وكريستينا ، و لم أتوقع بيومٍ ما أن أصل إلى هذه المرحلة المتقدمة

من الألم ..

لقد راهنت على الجواد الخاسر ، وفازت كلُّ الجياد ! و لم يتبقَّ لي إحساسٌ لأراهن عليه ..

خسرت اللعبة ، وغلبني الحظ باقتدار ، فقد راوغني بطريقةٍ مارادونية ، و لم أستطع أن أمنعه ولو مرّة من تجاوزي ، أو حتّى إعاقته بطريقةٍ غير شرعية في ظل غياب الحكم العادل عن حياتي..

طُرق الباب ، ودخلت آشلي بسرعتها المعتادة ..

- يا إلهي ! ما بكَ جاكي ؟

- حادث مروري قوي ، لا تقلقي أنا بخير ، كريستي هي من تواجه الخطر الآن ،فرئتها مثقوبة وستُجرى عمليتها بعد ساعة تقريباً ..

أكملتْ بكاءها بصورةٍ مطابقة لبكاء كريستينا حين بكتني عندما شُجَّ رأسي . المشهد يتكرّر رغم اختلاف الشخصيات، والألم يعتصرني حين أستحضر كل هذه المشاهد وأقوم بربط حاضري بها ..

- أين أندرسون ؟

- انفصلنا قبل سبعة أشهر ، لقد مررنا بالكثير من المشكلات..

- انفصلتما ؟؟ ما هو نوع المشكلة الأخيرة في علاقتكما؟

- أنت ..

- أنا ؟؟

مسحتْ دموعها بمنديلٍ تائه على طاولتي المُجاورة .. وقالت..

- نعم أنت ، فقد أخبره أحد الجيران بأمرنا ، و لم يُصدق بأنك صديقي ، وقام بتحميلي مسؤولية عدم إخباره بما يحصل بيننا. لهذا لم يطردك من عملك، و لم يمسسكَ بسوء ، وصبَّ بي جام غضبه وألقى بكافة الأشياء على عاتقي ..

- وماذا بعد ؟

- شكَّ أيضاً بأننا على علاقة عاطفية. هو لم يَجزم باليقين، لكنه لا يرى سوى ذلك ..

- ..... !

صمتت لبُرهة .. وأردفت ..

- أخبرته بأن الطفل ليس منه ، وأن أباه الحقيقي هو

أنت..

- تبّاً يا آشلي ، قُلتِ لي بأنكِ ستجهضينه حين اكتشفتِ أعراض الحمل ..
- كُنت صادقة جاكي ، لكن اختفاءك الأخير وتجاهلك لرسائلي لم يعزّز من ثباتي على القرار وأفعالك هي سبب إقدامي على عدم الإطاحة بطفلنا ..
- لماذا ؟

اقتربت من عيني ، وسرقت نظرة قريبة منها ، وقبّلت شفتي العليا ..

- لأني أحبك ، وأردت رسم ملامحك في مايكل في حال قرّرت التخلّي عني ، لقد رحل أندرسون، ألم تحلم بهذا اليوم طويلاً ؟
- .....
- ما بك ؟
- سأخبركِ بسرٍّ قد لا تصدقينه ..
- ماذا .. !؟
- أنا متزوجٌ الآن من كريستينا ..

نظرت إليَّ بذهول ..

- لا أصدق .. لا أصدق .. هل هي زوجتك فعلاً ؟

- نعم ، تزوجت بها بعدما خُيّل لي أنكِ تشتكينني للقسيس في ذلك اليوم الممطر ، هل تعلمين ما معنى أن يذهب المرء إلى قسيس في هذا الوقت تحديداً ؟

وتنهمر دموعها ببطء ..

- كُنت أشكو أندرسون ، هل يُعقل أن أشتكي نبضي وروحي لرجل دين ؟

- وتزوجتها أيضاً لأني أشم رائحتك بها..

رمت منديلها في سلّة المهملات ، ونهضت من سريري..

- سأذهب ..

- لن تذهبي .. ستبقين هنا بجواري ..

- لا يحق لك أن تترك زوجتك وتكون برفقتي .. !

- وهل كان يحق لكِ سابقاً ترك أندرسون والبقاء برفقتي؟

- .....

- اقتربي مني .. أريد أن أخبركِ شيئاً ..

وضعتُ يدي على وجنتها المبتلّة بالدموع ، وزرعت في

شفتيها قُبلة حارقة اختصرت كل أشواقي ..

- أنا أحبكِ أنتِ ، ولن يُخرجني من وضعي المزري سواكِ..

بُكاءٌ رجولي استملكني في تلك اللحظة .. متروع الصوت.. قليل الدموع ..

- لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء ، ولا أريد أن أرتكب المزيد . لا أريد أن أفقد شيئاً ، لا أريد أن تموت كريستينا بحادث سيرٍ كما ماتت والدتي مونيكا ، لا أريد أن أرى أيَّ شخصٍ وهو يصارع الألم ، أريد كل الأمور على ما يُرام ..

وأردفتُ بعد نفسٍ عميق ...

- كنتُ سببَ ألمكِ طوال هذه الفترة ، وسأكون ألماً مستقبليّاً لمايكل ، وألماً حاضراً لكريستينا التي تُصارع الموت بسببي ، وكنتُ سبباً غير مُباشر في وفاة أمي ، وكنتُ ..... !

وضعت يديها على فمي ..

- لست أنت .. الرب يُريد ذلك يا جاكي .. نسيت أن أخبرك بأمرٍ ما ..

- ما هو ؟
- لن تصدق أبداً ..
- أخبريني ما هو ؟
- والدك غاريث على قيد الحياة ..

صرخت بدهشةٍ ، وأمسكت كتفها بيدي ..

- وكيف عرفتِ ذلك ؟ من أخبركِ ؟
- قرأت اسمه في إحدى الصحف ، وسيعود إلى بريطانيا قريباً ..
- ماذا حصل له ؟
- لقد كان مفقوداً طوال هذه السنين ، وتم تحريره من الجماعة العراقية التي قامت باحتجازه ، وهو الآن حيٌّ وبكامل صحته ..
- رائع رائع .. سعيدٌ حدّ الجنون بهذا الخبر .. شكراً جزيلاً لربنا الذي حماه ..
- وسيحمي كريستي أيضاً .. آمن به فقط ..

دلف ستيف إلى الغرفة ..

- أووه .. آشلي .. جميلٌ أن أراكِ هنا ..

تعانقا وجلسا بجواري .. صمتَ ستيف لثوانٍ وقال بصوتٍ يَعرج ببطء على مسامعنا ..

– آسفٌ يا صديقيّ ، آسفٌ جدّاً على ما سأقوله ، كريستينا تحتضر ..

ردّدنا أنا وآشلي بصوتٍ واحد يكسوه الألم والدهشة..

– يا إلهي ...

– أين هي يا ستيف ؟ أخبرني أين هي الآن ؟

– في الطابق الرابع ، غرفة ٤٢٢ ..

نزعت المحلول من يدي ، ونهضت بسرعة إلى المصعد برفقة آشلي ..

قالت الممرضة بصوتٍ عالٍ ..

– جاك لا يُسمح لك بفعل ذلك .. تعال إلى هنا .. !

دلفنا إلى المصعد ، وضغطت آشلي على الطابق الرابع..

وصلنا إلى الغرفة .. حيث الممرضة التي تجلس هنالك..

– أين كريستينا ؟

– إنها بغرفة العمليات ، في آخر هذا الممر ..

– شُكراً لكِ ..

انطلقنا بسرعة إلى تلك الغرفة ، وحاولنا فتح بابها ، لكنه

مؤصد ، ولا يُسمح لأحدٍ بالدخول إلى هنالك ، طرقنا الباب ليخرج لنا أحد الجرّاحين ..

- أرجوك أيها الطبيب ، أريد رؤية كريستينا فهي تحتضر..

- لا يُمكنك العبور إطلاقاً ، نحن نحاول بشتّى الطرق أن نقوم بإنقاذها ، دخولك سيشتت عملنا ، الرجاء أن تلتزم بالهدوء ..

صرختُ بصوتٍ عالٍ ..

- أرجوك سيدي .. أرجوك ..

- سأتصل على رجال الأمن في حال تكرارك لأي أمرٍ سخيف .. سأغلق الباب الآن ..

اتجهت برفقة آشلي إلى النافذة ، حيث نرى كريستينا بوضوح وهي ترقد على السرير الأخضر ، الوجع يقتلني من الوريد إلى الوريد وأنا أشاهدها بهذا الشكل المفزع ، فقد بدأ الأطباء باستعمال الجهاز الكهربائي لإنعاش وهن قلبها .. قُلت لآشلي والدموع قد ملأت ملامحي ..

- ستموت يا آشلي .. ستموت ..

لم تُجبني . هي تعيش الموقف برعشة وصمت مُطبق ،

وترقّب يَهابُ من التالي ..

- انظري إلى إشارات قلبها في تلك الشاشة ، سيتوقف حتماً، نعم سيتوقف ، سحقاً لهؤلاء جميعاً ..

ركضت باتجاه الباب المغلق ، وصرختُ بشدّة حتى تمّ فتحه لي ، جلست بجوارها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة في هذا الكون. الصوت الصادر من حنجرتها يُشبه شخير النائم، إنها أعراض الرئة المثقوبة التي ثقبت مشاعري وطعنتني في شرياني.. ورُبما هي أعراض شيءٍ آخر لا أعلمه ..

- كريس .. كريس .. قاومي يا عزيزتي .. قاومي ..

نظرت إليَّ ببطء شديد ..

- أنا جاكي .. أرجوكِ .. أنا أنتظركِ .. الحياة تنتظركِ .. قاومي ..

غيّرت اتجاه نظراتها إلى آشلي التي تبكي ، ابتسمت نصف ابتسامة ، وغمزت لي بعينها اليُسرى ، هي طريقتها المدللة حين تبحث عن قُبلة دون طلبٍ صوتي ، بكيتُ بشكلٍ هستيري بعد تلك الغمزة ، واقتربت من شفتيها اللتين تشخران بهدوء وقُمت بتقبيلهما ..

- كريس .. كريس ..لا تموتي أرجوكِ ..

أبعدني الأطباء عنها حين بدأ صوت شخيرها بالتسارع..

انخفض معدّل ضربات قلبها بهدوء .. وتوقف فجأة ..

- دكتور جيمس ، أعطني الصاعق ..

ويصعقها الدكتور ، لعلَّ الصعق يُعيد نبضاتها المسلوبة، ويسد رئتها المثقوبة ..

ويصعق ، وتزداد الأماني المخنوقة ، والدُموع التي ترجو لقاءها بعد هذه المحنة العصيبة ..

Hear the wind sing a sad, old song
it knows i'm leaving you today
please don't cry or my heart will break
when I go on my way

Goodbye my love goodbye
goodbye and au revoir
as long as you remember me
I'll never be too far

goodbye my love goodbye
I always will be true
so hold me in your dreams
till I come back to you

see the stars in the skies above
they'll shine wherever I may roam
I will pray every lonely night
That soon they'll guide me home ..

• Demis Roussos - Goodbye My Love Goodbye

الثلج يتساقط في مانشستر .. وشارع برايندلي يكتسي البياض ..

الأجواء باردة وتجعلني ساكناً بقُرب مدفأتي طَوال اليوم، وأن أكتفي بالغناء برفقة سيجارة لتزيد من حرارة الأجواء ، لا يُوجد أحد في المترل ، فآشلي قد اصطحبت مايكل إلى المتجر قبل عدّة ساعات لشراء بعض الحلوى بمناسبة عيد ميلاده السادس ..

هذا اليوم حافل بالكثير من الأحداث . ولادة مايكل، الطفل الجميل الذي ورث عين أبيه الخضراء ، وجمال أمه الملائكي ، وقليلاً من شقاوة جدّته سارا ..

ويشهد أيضاً وفاة كريستينا وسارا بشهرٍ واحد ، زوجتي السابقة وأم زوجتي الحالية ، ما أقسى هذا اليوم الذي يحمل الفرح والحزن في آنٍ واحد ..

فالأيام لا تكترث حين تسير وإن حفَّتنا بالمكاره ، ولهذا سنحتفل بميلاد مايكل هذا اليوم ، وسأحتفل وحدي بمرور عامين على وفاة كريستينا ، تلك التي أوصلتني لآشلي من حيث لا تحتسب ..

أمسكت قلمي بجوار المدفأة ، وبدأت أخطُّ على ورقةٍ صفراء :

« عزيزتي كريستينا ..

أعلم بأني سيئٌ جدّاً ..

لكن يجب أن تعلمي أيضاً بأني أبكيكِ وسأبكيكِ طوال العمر ، أقدّر مجيئكِ إليَّ من لندن ، وفوزكِ بقضية أولئك الذين يقضون سجناً مؤقتاً وأنتِ في سجنٍ أبدي يا حبيبتي ، أقدّر حبكِ لي وزواجك مني، ووقفتكِ الصادقة معي طَوال فترة انتكاستي ..

أنتِ هديتي الممنوحة من ربي ، خُلقتِ لتُخرجيني من ورطتي، وخُلقت كي أعيدكِ إليه ، كم هو قاتل هذا التناقض المصنوع بيني وبينكِ ..

من سينام على كتفي في كل فيلم ؟ من سيصنع لي القهوة الفرنسية كلَّ صباح ؟ ومن ستغمز إليَّ في كل مرة تشتهي بها قبلة ؟

الجو باردٌ يا كريستينا ، نحن الآن في أكتوبر ، ومضى على موتكِ عامان من اليأس ، والفقد الذي يُفزع كل طمأنينة في دواخلي الممتلئة بكِ . تجاوزتِ المرض بجدارة، وتعايشتِ مع الطفلة اليتيمة بداخلكِ حتى نضجت ، لكنكِ لم تستطيعي

تجاوزي ، وفضّلتِ الموت غيرةً عليَّ ، أنتِ لا تعلمين بأني أنام كلَّ يوم بجوار من قتلتكِ غيرةً وواقعاً، لم أكن أدرك حجم الأنثى الغيور على حبيبها ، ولكني أراها الآن أثناء كتابتي التي تتوجّع من كل جنبٍ وصوب..

أفتقدكِ يا كريستي ، أفتقد لنُور الفجر الذي يُشرق من ضوء سيجارتكِ ، أفتقد لوعودكِ الكاذبة حين تخبريني بأنكِ ستتركين التدخين عاجلاً أم آجلاً ، وأفتقد جلوسكِ التأملي على النافذة كلّ مساء ..

لستُ أدري كيـــــ..... !

.....»

باغتتني آشلي بدخولها إلى المترل دون شعوري ، قالت لي بعد أن أخفيت الورقة عن ناظرها ..

- ماذا تكتب جاكي ؟

- لا شيء .. فقط أحاول تذكر شيءٍ ما ..

- ..... !لا بأس ..

- هل اشتريتِ لمايكل كل مستلزمات الحفلة الصغيرة ؟

- نعم .. العديد من البالونات والشموع التي سيفرح بها..

- أين هو الآن ؟

أشارت بإصبعها إلى النافذة المجاورة ..

- بالخارج ، فهو يشكّل شخصية رجل الثلج برفقة أبناء الجيران ..

اقتربت مني ..

- هل أنتَ بخير يا عزيزي ؟

- بخير لا تقلقي يا حلوتي .. أين أبي فقد تأخر على غير عادته ؟

- سيأتي بعد قليل .. لا تقلق ..

خبأت الرسالة في جيبي . لا أظن أنه من الجيد قراءة آشلي لهذه الرسالة بأي صيغةٍ كانت ..

بعد نصف ساعة ، طُرق الباب ..

- آشلي .. افتحي الباب للطارق ..

- لا أستطيع ذلك ، فأنا أطهو الطعام ، قم بذلك يا كسول..

نهضت لفتحه ، وكان والدي غاريث بالموعد برفقة عصاه التي يتوكأ عليها ..

- مرحباً يا أبي ..

- مرحباً بُني ..

- لقد تأخرت ، ما بك ؟

- الثلج يا جاك ، السير مُتعب في هذه الأجواء ..

صنعت آشلي لوالدي كوب قهوةٍ دافئ، وبدأ بالتقاط أنفاسه.. وقال بصوتٍ مُتعب ..

- لقد كبرتُ ، لم أكن بهذا الوهن قبل عدّة أعوام يا عزيزي..

- لا بأس يا أبي ، جميعنا نكبر ، هكذا هي الحياة ..

صمت قليلاً ، ثم قال لي ..

- ما بك ؟ أقرأ في عينيكَ الكثير يا بُني ، هل تعاني من أمرٍ ما ؟

- لا يا أبي ، أنا بخير ..

تمتم بعدّة كلمات ، وقال ..

- علّمتني مونيكا كيف أقوم بقراءة عينيك يا صغيري، فأنا أرى بهما الكثير من الأشواك ، وهما قابلتان لأن تصبا الكثير من الدموع .. !

- لقد ماتت يا أبي ، وماتت عُلومها معها ..

- لكنها لم تمت في قلب أبيك ، فهي ما زالت شابة ..

نظرت له بتعجّب ، وأضاف ..

- لقد زرعت في قلبي شيئاً لا يموت ..

- كل الأشياء ستموت يا أبي ..

ارتشف القليل من قهوته ، ثم قال ..

- لقد مات جون ديفز و لم تمت اكتشافاته يا جاك ، فجُزر فولكلند و بافن ما زالت تعج بالسكّان رغم أنه مات مقتولاً من قبل القراصنة ، لقد كان بحّاراً عظيماً يا بُني..

- وماذا عن كريستوفر كولمبوس ؟ لقد اكتشف أمريكا ، وبسببه تمَّ إزاحة أغلب سكانها الأصليين إلى البيرو، لقد ارتكب جُرماً عظيماً باكتشافه ..

أشار بسبّابته بالنفي .. وأردف ..

- لقد مات مريضاً ، و لم يكن يعلم بأنه قد اكتشف أمريكا، وكان يعتقد أنه في الهند حين حطَّ رحاله بها..

- لقد تعذّب الكثيرون بسبب ذلك ..

- ربما .. !

نظر إليّ وقال بصوتٍ حاد ..

- القوة مضرّة جدّاً يا بُني ، شاهدت بأرض العراق ما لم أشاهده في حياتي ، ليس غريباً أن تمشي في الطريق وتجد من يحتضر ، أو ميتاً قد تعفّن وسط الصحراء. خروجك من مترلك يعني أن هنالك احتمالاً وارداً بعدم عودتك إليه إلا جثّة ليبكي عليك الناس، أصبحت الروح البشرية رخيصة كخرقة بالية . ببساطة ، صارت تُزهق برصاصة كالحيوانات حين نصطادها!

نظرتُ إلى آشلي ، وخطرت كريستينا في بالي بتلك اللحظة، وقلت له ..

- نعم ، البقاء للأقوى دائماً !

- علمتني الحروب بأن الحياة هي أغلى ما نملك ، ولهذا أبكي بحسرة حين أرى ميتاً تمّ تجنيده لخدمة وطنه ، و لم يتم تجنيد روحه لخدمة المعاني الإنسانية لعُمره الفاني ..

شرب قهوته بأكملها ، و قال بصوتٍ عالٍ ..

- العُمر واحد ، و لن يتكرر أبداً ..

دلف مايكل إلى المترل بملابسه المتّسخة والمبلّلة من الجليد المذاب ، وكالعادة ، وبّخته والدته على ذلك، لكنه لا يكترث

أبداً ، فهي دائماً ما تشبّهني به من حيث اللامبالاة ..

وبدأ الاحتفال ، كعكةٌ وست شمعات تنتصف استدارتها المحفوفة بالشوكولا ، أخذ والدي برفع صوته بغناء Happy Birth day to you ، تعالت أصواتنا مع مايكل الغارق بالضحكات والابتسامات في هذا الظلام ..

والدته التي تلتقط الصور وهو ينفث الشموع ، أبي الذي يقبّله ، والسكين التي بيدي لأقطّع الكعكة ، جميع مظاهر تلك الحفلة كانت ماتعة رغم أن قلبي ينتظر مراسم إقامة الحفلة الأخرى ..

قُلت لهم بمنتصف الحفلة ..

- أنا ذاهبٌ الآن .. لديّ ما أنجزه ..

قال والدي وسط متابعة آشلي و مايكل ..

- الجو سيئ يا عزيزي ! فالثلج ينهمر بكثرة ، ألا تستطيع تأجيل هذا ؟

- لا أستطيع ذلك ، ولن أتأخر في عودتي ..

- بحفظ الرب ..

ارتديت معطفي الذي يقيني من الهواء البارد ، وانطلقت بمركبتي في شوارع مانشستر البيضاء ، وسمائها الملبّدة بالسحب. أثناء قيادتي ، أرى العديد من الأطفال الذين يلعبون خارج

منازلهم ، بعضهم يصنع رجل الثلج، والبعض الآخر يتقاذف الكرات الثلجية في منظرٍ يسر الناظر إليه ..

أنا متّجهٌ الآن إلى المقبرة ، تلك التي وارت جثمان كريستينا قبل عامين ، يا ترى هل تعاني من البرد والوحدة ؟ هل تفتقد لمن يذكّرها بعيد ميلاد وفاتها ؟ إنها بلا عائلة ، ولا تملك إلا صديقاً واحداً ، وأنا زوجها الذي ألقى بها إلى الموت ، يجدرُ بي أن أكون برفقتها اليوم ..

الساعة الواحدة ظُهراً ، وشارع برايندلي لا يحوك لي درباً سريعاً للوصول إليها ..

وصلتُ إلى المقبرة ، حيث الصمت الذي يطبق على كل شيء . الأشجار المكسوّة بالثلج ، والأرض التي تلاشت خضرتها بالبياض ، وأسماء القبور التي اختبأت خلف الثلوج وكأنها تقوم بتدفئة أصحابها ، بحثت عن قبرها الذي كان أسفل شجرةٍ كبيرة، وقمت بنفض الثلج عن كل قبرٍ بتلك المنطقة حتى وجدته بعد طول عناء ..

بدأت بإفراز الدموع وسط الهواء البارد ، والذي يُسقط بعض الثلج على قبعتي ..

– آه يا كريس ، هل تسمعينني ؟ أنا هنا ..

– .....

نوبة بكاء شديدة أصابتني حينها .. نزعت معطفي ووضعته على قبرها ..

- الأجواء باردة يا عزيزتي ، يجب أن تشعري بدفئي كما كنتِ تفعلين معي ، لا أجد كلاماً يليق بكِ ، فكل الكلمات هربت مني و لم تحضر سوى دموعي التي تترجم ضعفي ، هل تسمعينني يا كريستينا ؟ هل تسمعينني ؟

نفضت المزيد من الثلج عن قبرها ..

- نعم ، تسمعينني بوضوح ، أعلم ذلك ، لقد كتبت هذا اليوم رسالة لكِ ، سأضعها بجوارك لتقرئيها تحت هذا الثلج الكثيف والذي سيُذيب كافة معانيها إليكِ، وتنتقل إلى عالمكِ الآخر من خلال هذا القبر..

قمت بتغطية الرسالة في الثلج مرةً أخرى .. وقُلت ملوّحاً بوداعها ..

- سأذكركِ دائماً يا كريستي .وسأترك هذا المعطف الذي تبلّل بثلج نام على صدر قبركِ ، وعذراً على رسالتي التي لم تكتملَ ، فالوقت يخنقني في هذه الأجواء .. بحفظ الرب..

(رحل جاك إلى المترل ، وذهبت آشلي لتزور قبر والدتها في عيد وفاتها ، لمحتْ زوجها عند قبر كريستينا . ومع رحيله، ذهبت إلى هنالك ، وقامت بنفض الثلج المجمّع من قِبَل جاك في محاولة لاستكشاف سبب فعلته .. !)

THE END

رواية
NOVEL

شارع برايندلي

ماجد محمد

هذا المطر ليس عادياً ـ
فقدومه يعني الكثير لهذا الرصيف،
الأزهار تغني والتربة ترقص على أنغام
إيقاعه، إنه يصنع كل هذا الاخضرار
المحيط من حولي، ويعطي هذا التوت
المنسدل لذّته، كم أغبط النباتات لأنها
تستطيع أن تعتمد على الماء كمصدر
لحياتها، والرب لن ينساها بالتأكيد، هو
راضٍ عنها، فالسماء تمطر!

ISBN 978-9960-586-014-4
9789960586014